دولة فلسطين

دار الإفتاء الفلسطينية

الرسول الأسوة

محمد

صلى الله عليه وسلم

إعداد: الشيخ محمد أحمد حسين

المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

رئيس مجلس الإفتاء الأعلى

الجزء الرابع عشر

القدس

1443هـ - 2021م

هدية

من إصدارات

دار الإفتاء الفلسطينية

القدس

1443هـ - 2021م

إعداد

الشيخ محمد أحمد حسين / المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

مراجعة

الشيخ إبراهيم عوض الله / نائب المفتي العام

مفتي محافظة رام الله والبيرة

فريق العمل

منسق أعمال الفريق	أ. مصطفى أعرج
تدقيق لغوي	هالة عقل - إيمان تايه
تدقيق شرعي	نجود بدران - حذيفة غنيمات
المونتاج وتصميم الغلاف	محمود طنينة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد؛

فالمسلم يحرص على اتباع سنة النبي، صلى الله عليه وسلم، وهديه النبوي، ليتمثل سيرته العطرة في حياته كلها، زوجًا وأبًا، ومربياً، وحاكمًا، وسياسيًا، وقائداً، ومحارباً، وزاهدًا وقاضيًا.

وحيث إن دار الإفتاء الفلسطينية تنبري لنشر تعاليم دين الإسلام، فيسرها أن تهدي لقرائها الأعزاء الجزء الرابع عشر من كتاب (الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم)، الذي يعرض بعضاً من هدي المصطفى، عليه الصلاة والسلام، وسيرته الطاهرة، بطريقة ميسرة، تمتاز ببساطة العرض، ووضوح الفكرة، ودقة المعلومة.

ويضم هذا الإصدار ستة وأربعين مقالاً، سبق نشرها في زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، ضمن صفحة جريدة القدس الدينية التي تنشر كل يوم جمعة وشملت هذه المقالات موضوعات عديدة، منها: عبادات، ومعاملات، وتفسير، وسيرة نبوية، والمسرى، وأخلاق وقيم.

وتأسياً بهدي الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، القائل: (لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ)[*]، يسرني أن أتقدم بالشكر والتقدير من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل الطيب، من موظفي دار الإفتاء الفلسطينية، وصحيفة القدس، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتهم، وأن ينفع الله بعملهم المسلمين، كما أسأله عز وجل أن يديم دار الإفتاء الفلسطينية منهلاً للعلم والخير والهداية، إنه الموفق إلى سبيل الرشاد.

وأخيراً نؤكد على أن ما أصبنا به في هذا الكتاب وغيره من الأعمال، فبنعمة من الله وفضل، وما أخطأنا فمن عند أنفسنا، سائلين الله العفو والعافية، وقبول الأعمال الصالحة، بفضل جوده وكرمه.

الشيخ محمد أحمد حسين

المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

خطيب المسجد الأقصى المبارك

1443هـ - 2021م

*سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، وصححه الألباني.

الفصل الأول / عبادات

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	يبشر بفتح أبواب الرحمة مع قدوم رمضان	7
.2	بُلِغَ ليُعلمَ الخلقَ بأن الله قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه	11
.3	وَجُودِه في رمضان وغيره - الحلقة الأولى	14
.4	وَجُودِه في رمضان وغيره - الحلقة الثانية والأخيرة	17
.5	يربط ثبوت رمضان وشوال بالأهلة، ويبشر الصائم بفرحتين	21
.6	يحث على الاعتدال في الصيام بعد رمضان	25
.7	يهتف بربه أن ينجز له وعده	28
.8	ومناسبة اعتكافه في شوال	31

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يبشر بفتح أبواب الرحمة مع قدوم رمضان

عـن أَبِي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، قـال: قـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم:(إذا كان رَمَضَـانُ، فُتِّحَـتْ أَبْـوَابُ الرَّحْمَـةِ، وَغُلِّقَـتْ أَبْـوَابُ جَهَنَّـمَ، وَسُلْسِـلَت الشَّـيَاطِينُ)[1]

عـادة مـا يشـتاق المسـلمون لشـهر رمضـان، ويـزداد شـوقهم لـه عنـد الاقـتراب مـن حلولـه عليهـم، إيمانـاً منهـم وتيمنـاً بفتـح أبـواب رحمـة الله وجنتـه لهـم مـع قدومـه، كمـا جـاء في حديـث أبي هريـرة أعـلاه، ورسـول اللَّـهِ، صـلى الله عليـه وسـلم، كذلـك يقـول:(إذا دخـل رَمَضَـانُ فُتِّحَـتْ أَبْـوَابُ الْجَنَّـةِ...)[2]، والمتدبـر في هذيـن الحديثين الشريفـين يلاحـظ أن التعبـير عـن قـدوم رمضـان جـاء بلفظـي: كان، ودخـل، وفي روايـة أخـرى جـاء بلفـظ وتجتمـع وجـاء، كلهـا عـلى التبشـير بفتـح أبـواب الرحمـة، وفي بعضهـا أبـواب الجنـة، بالتزامـن مـع قـدوم رمضـان، وبـين الوعـد بفتـح أبـواب الرحمـة وفتـح أبـواب الجنـة رابـط واضـح، والمـراد بفتـح أبـواب الجنـة، أي تقريبـاً للرحمـة إلى العبـاد، ولهـذا جـاء في بعـض الروايـات أبـواب الرحمـة، وفي بعضهـا أبـواب السـماء[3]

وجـاء في فتـح البـاري أن فتـح أبـواب السـماء كنايـة عـن تـنزل الرحمـة، وإزالـة الغلـق عـن مصاعـد أعمـال العبـاد، تـارة ببـذل التوفيـق، وأخـرى بحسـن القبـول، وغلـق أبـواب جهنم كنايـة عـن تـنزه أنفـس الصـوام عـن رجـس الفواحـش، والتخلـص مـن بواعـث المعـاصي، بقمع

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان.
2. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده) ويقول:(إذا جاء رَمَضَانُ فُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ.
3. حاشية السندي على سنن النسائي:4/ 126.

الشهوات، وإن قيل كيف نرى الشرور والمعاصي واقعة في رمضان كثيراً، فلو صفدت الشياطين لم يقع ذلك؟ فالجواب أنها إنما تقل عن الصائمين، الصوم الذي حوفظ على شروطه، وروعيت آدابه. [1]

يا أرحم الراحمين ارحمنا:

الرحمة نعمة يتفضل بها الله واسع الرحمة على الخلق، إذ هو الرحمن الرحيم سبحانه، وما الرحمة المشاهدة والملموسة من الخلق تجاه بعضهم نحو بعض، كرحمة الأم بولدها، سواء أكانت من صنف البشر، أم غيرهم من الخلق، طيور أو زواحف أو حيوانات، إلا جزء من مائة جزء من رحمة الله، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يوم خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الذي عِنْدَ اللَّهِ من الرَّحْمَةِ، لم ييئس من الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الذي عِنْدَ اللَّهِ من الْعَذَابِ، لم يَأْمَنْ من النَّارِ)[2]، والمسلم يواصل سؤال الرحمة الربانية، في صلاته وخارجها، فلسانه وقلمه يرددان دائماً البسملة، وشطرها الرحمن الرحيم، فيا أرحم الراحمين ارحمنا، واكشف الغمة عنا، وفرج عن خلقك ما هم فيه من بلاء.

المسلمون في رمضان:

معلوم أن لرمضان أحكاماً فقهية وتعبدية، كما أن له عادات اجتماعية خاصة، ففيه تزداد أعداد الذين يحضرون إلى المساجد نهاراً وليلاً، للصلاة وقراءة القرآن وسماع دروس العلم، وفيه صلاة القيام، التي يحرص كثير من المسلمين والمسلمات على أدائها جماعة في المساجد، وفيه تقام موائد الإفطار العامة والخاصة، والتي يجتمع في

1. فتح الباري:4 /114.
2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الرجاء مع الخوف.

بعضها الأقارب والأرحام، وما إلى ذلك من القربات التي يتم التركيز على أدائها فيه، والتي يعد لها المسلمون عادة البرامج والدعوات والموازنات، إضافة إلى الأمر الأهم والمتمثل بشحذ الهمم والطاقات لصيام نهاره وقيام ليله، وارتياد المساجد للصلاة والاعتكاف، والمكث فيها لتدارس علوم الدين وتلاوة القرآن الكريم، فتعج المساجد بالعُمّار، وبخاصة المساجد الثلاثة: الحرام والنبوي والأقصى.

أحكام وظروف خاصة لرمضان هذا العام:

يهل رمضان هذا العام والعالم منشغل بوباء "كورونا" الفتاك، الذي أصاب مناطق منه، فشل حركتها، وأوقع فيها قتلى وإصابات، يتفاوت حالها بين صعبة وحرجة وخفيفة، وفُرضت على الناس قيود خاصة بالنظافة الإضافية، والتجمعات والملامسة، والاحتياط من الرذاذ المنبعث من الأفواه والأنوف، وبعضهم أُلزم بِحَجْر لا تقل فترته عن أسبوعين، ضمن شروط خاصة وحذرة للغاية، يُمنع بموجبها من أن يقترب من أي شخص لمسافات معينة، ويمنع من التشارك مع غيره في بيوت الخلاء، ويمنع من تناول الطعام مع أفراد أسرته على المائدة نفسها، ومن أصعب تداعيات هذا الوباء إغلاق المساجد، التي منها أمهات المساجد وأعظمها، أمام عشاقها، وبخاصة في رمضان، بسبب تفشي هذا الوباء، وما رافق ذلك من إجراءات احترازية للوقاية من تعزز انتشار العدوى به، فإن بيوت الله على غير العادة مغلقة بالأقفال، ولا يتحرك فيها شيء، سوى صوت المؤذن، إن كان المسجد مربوطاً بشبكة أذان موحد، فينطلق الصوت إلكترونياً، دون تدخل بشري من داخل المسجد، ودون أن يفتح له باب أو شباك، ودون أن يشعل فيه ضوء، فبالتزامن مع هذا الحال الصعب والمحزن، يهل علينا، وعلى كثير من أهل المعمورة شهر رمضان الفضيل.

فيا رب رحمتك ولطفك، أجب يا الله دعوات الشغوفين لطرق أبواب بيوتك، التي أذنت سبحانك لها أن ترفع، ويذكر فيها اسمك الجليل، ويسبحك فيها العابدون، مصداقاً لقولك جل شأنك: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}(*)

في هذا الظرف والأحوال كلها سيبقى المؤمنون يرددون أهلا ومرحباً بشهر رمضان، الذي أنزل فيه القرآن، هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ، سائلين العلي القدير أن يعيننا على صيامه وقيامه، على الوجه الذي يرضيه سبحانه، وأن يرفع عنا وعن البشرية جائحة "كورونا" وأخواتها، وصلى الله وسلم، على النبي محمد، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* النور:36.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

بُلـغَ ليُعلـمَ الخلـقَ بـأن اللـه قريـب يجيـب دعـوة الـداع إذا دعـاه

يخاطـب اللـه جـل في عـلاه نبيـه الأسـوة، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فيقـول عـز وجـل:{وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَـنِّي فَـإِنِّي قَرِيـبٌ أُجِيـبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ فَلْيَسْـتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُـواْ بِي لَعَلَّهُـمْ يَرْشُـدُونَ}(*)

هـذه الآيـة الكريمـة مثبتـة في سـورة البقـرة في سـياق آيـات فـرض الصيـام، وبيـان أحكامـه، والحديـث عـن شـهر رمضـان، الـذي أنـزل فيـه القـرآن، فالآيـات الثـلاث الـتي سـبقت هـذه الآيـة الكريمـة، تضمنـت أولاهـا تشريـع فـرض الصيـام، وتضمنـت الـتي تليهـا بيانـاً لحكـم الـذي يفطـر بسـبب السـفر أو المـرض، فألزمتـه بالقضـاء، وإلا الفديـة، ثـم عـادت الثالثـة للحديـث عـن القضـاء والفديـة، بعـد التنويـه بـأن شـهر رمضـان أنـزل فيـه القـرآن، وختمـت بالتنبيـه إلى أن اللـه يريـد بعبـاده اليـسر، ولا يريـد بهـم العـسر، لعلهـم يشـكرون هـذه النعـم والفضائـل، سـواء المتمثلـة بالتيسـير، أم بإنـزال القـرآن هـدى للنـاس، فكلهـا مـنن تفضـل اللـه بهـا عـلى عبـاده.

وبعـد هـذه الآيـات ذات الصلـة بالصيـام وبعـض أحكامـه وفلسـفة تشريعـه، جـاءت الآيـة المثبتـة أعـلاه، والـتي أجـاب اللـه فيهـا عـن سـؤال عبـاده عنـه، فبـين أنـه قريـب، يجيـب دعـوة الـداع إذا دعـاه، ثـم تلتهـا آيـة واصلـت الحديـث المفصـل عـن بعـض أحـكام الصيـام ومسـائله، وهـذا الترتيـب للآيـات يسـتحيل أن يكـون صدفـة، وإنمـا هنـاك صلـة وثيقـة بينهـا، وبـين قضاياهـا، فالصائـم يعبـد اللـه بالكف عـن الطعام والـشراب وبعـض الملـذات المباحة، انصياعـاً لأمـر ربـه، وهـو حـال جوعـه وعطشـه يكـون قريـب الصلـة بخالقـه، يدعـوه، فاحتـاج إلى أن يطمـئن بـأن دعـاءه يسـمع، ويجـاب.

* البقرة:186.

الله قريب:

الإجابة الربانية في الآية الكريمة عن الله بأنه قريب، تعني الشيء الكثير، فالعبد الداعي لا تلزمه إجراءات معقدة لمناجاة ربه، وسؤال حاجاته، والشكوى إليه، فهو قريب منه، يسمع نجواه، ويعلم سره وعلنه، وتكرر التنبيه إلى أنه سبحانه قريب يجيب الدعاء في آيات أخرى، ففي سورة هود خبر عن تنبيه ثمود إلى هذه الحقيقة، فقال عز وجل:{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ}[1]،والملاحظ أن هذا التعقيب جاء في الآية الكريمة بعد الأمر بالاستغفار والتوبة إلى الله.

وفي سورة سبأ تم التنبيه إلى أنه سبحانه قريب، بالاقتران مع ذكر أنه سميع، فقال تعالى:{قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}[2] ، مما يعني أن ذكر القرب التصق بذكر السمع، ولا يبعد هذا عما جاء في آيتي البقرة وهود، اللتين التصق فيهما ذكر القرب مع إجابة الدعاء، مما يعني أن في هذا التنويه الإلهي طمأنة للعباد، بأن دعاءهم يسمع، دون عراقيل ولا تشويش، فلتكن منهم المسارعة للدعاء والتضرع، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم في أمان الرحمن وحفظه.

رمضان فرصة سانحة للتضرع لله والابتهال:

رمضان شهر الخير والبركات، والرحمة والغفران، يهل علينا ونحن نُبتلى، فيا لها من فرصة سانحة، أن نسأل فيها من بيده الرحمة الواسعة والدائمة، أن يشملنا بلطفه ورحمته، وأن ينظر إلينا بما هو أهله سبحانه، لا بما نحن أهله، فهو الغفور الرحمن الرحيم، ونحن الضعفاء الخطاؤون، ورحمة الله واسعة ودائمة، تتنزل على خلقه في الدنيا والآخرة.

وفي شهر رمضان، يتطلع الصائمون القائمون لأن تفيض عليهم الرحمة الربانية بقبول أعمالهم، ومغفرة ذنوبهم، وفي هذا العام الذي ابتلوا فيه بوباء (كوفيد 19)

1. هود:61
2. سبأ:50.

يمتد تطلعهم إلى أن يخصهم الله برحمة، يرفع عنهم بها ما هم فيه من جَهد وداء، فقد ضاقت بهم السبل، واشتدت عليهم المصاعب، فالأبدان مهددة بالمرض الساري، والجيوب خاوية، والقادم يكتنفه الغموض، فهذه الأسباب وما شابهها تؤز إلى سؤال الرحمة الربانية أزاً، فلا ملجأ من الله إلا إليه، ولا نجاة من شر الخلق إلا بالتعوذ بِرَبِّ الفَلَقِ، مِن شَرِّ مَا خَلَقَ، والتعوذ برب الناس، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ، مِن شَرِّ الْجِنَّةِ والنَّاسِ.

ورمضان فرصة سانحة للتضرع لله، بطلب العفو والمغفرة، وصلاح الحال، ورفع المقت والغضب، عن الخلق، فقد ضاقت بهم السبل والأرض بما رحبت، فإليك يا رب نشكو ضعف قوتنا، وقلة حيلتنا، وإن لم يكن بك علينا غضب فلا نبالي.

خير ملاذ من الروع:

ما أحوج عباد الله أن يسألوا خالقهم العفو والمغفرة، وكشف الضر عنهم، في أول رمضان، وخلاله، وقبله وبعده، وخلال رمضان هذا العام، وبقية الأيام والأعوام، حتى نلقاه سبحانه، نسأله جل في علاه الأمن من الروع، والطمأنينة، لنلقاه راضين مرضيين، مصداقاً لدعوته سبحانه:{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً* فَادْخُلِي فِي عِبَادِي* وَادْخُلِي جَنَّتِي}(*)، فخير ملاذ للخلق من الوباء والشرور والكروب، أن يلجأوا إلى من يسمع دعاءهم، ويجيب سؤالهم، ويطمئن قلوبهم، وينزل السكينة عليهم، ويُذهب عنهم الروع والخوف والضر.

فالله نسأل أن يكشف الغُمة عن خلقه المؤمنين بعزته، وبوجوده وجبروته، وأن يبدل خوفهم أمناً، وظلامهم نوراً، وأن يرفع مقته وغضبه عنا وعنهم، وعن سائر خلقه، إلا المعتدين الظالمين منهم، وصلى الله وسلم، على النبي محمد، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

* الفجر:27 - 30.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

وَجُودُه في رمضان وغيره

الحلقة الأولى

عن ابن عَبَّاسٍ، قال: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَجْوَدَ الناس، وكان أَجْوَدُ ما يَكُونُ في رَمَضَانَ، حين يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكان يَلْقَاهُ في كل لَيْلَةٍ من رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ من الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ)[1]

في الحديث أعلاه شهادة بتفوق جوده عليه الصلاة والسلام، على الخلق جميعاً، ويحصل تعاظم لهذه المكرمة الأخلاقية، وزيادة في السعة والقدر في شهر رمضان المبارك، شهر الخير والبركات.

كالريح المرسلة في الجود:

يبين حبر الأمة، رضي الله عنه، في هذا الحديث الشريف، أن جبريل، عليه السلام، كان يأتي النبي، صلى الله عليه وسلم، كل ليلة من ليالي رمضان، يدارسه القرآن الكريم، ومن اللافت للأنظار التركيز على تعاظم جوده صلى الله عليه وسلم، خلال هذه اللقاءات الرمضانية، فكان في الجود فيها كالريح المرسلة؛ يعني أنه كان ينفق ويجود، ولا يخاف من ذي العرش إقلالاً.

يقول ابن حجر العسقلاني: فرمضان موسم الخيرات؛ لأن نعم الله على عباده فيه زائدة على غيره، فكان النبي، صلى الله عليه وسلم، يؤثر متابعة سنة الله في عباده، فبمجموع ما ذكر من الوقت، والمنزول به، والنازل، والمذاكرة، حصل المزيد في الجود، والعلم عند الله تعالى، والمرسلة أي المطلقة، يعني أنه في الإسراع بالجود أسرع من الريح، وعبر بالمرسلة إشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة، وإلى عموم النفع بجوده، كما تعم الريح المرسلة جميع ما تهب عليه.[2]

1. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.
2. فتح الباري: 1 / 31

وجه الصلة بين عبارات الحديث وفوائده:

يبين العيني بأن المناسبة بين الجمل الثلاث المذكورة في الحديث، وهي قوله: (كان أجود الناس) و(كان أجود ما يكون في رمضان) و (فلرسول الله... إلخ) ظاهرة؛ لأنه أشار بالجملة الأولى إلى أنه صلى الله عليه وسلم، أجود الناس مطلقاً، وأشار بالثانية إلى أن جوده في رمضان يفضل على جوده في سائر أوقاته، وأشار بالثالثة إلى أن جوده في عموم النفع، والإسراع فيه، كالريح المرسلة، وشبه عمومه وسرعة وصوله إلى الناس بالريح المنتشرة، وشتان ما بين الأمرين؛ فإن أحدهما يحيي القلب بعد موته، والآخر يحيي الأرض بعد موتها.

وأما المناسبة بين الجملة الرابعة، وهي قوله:(وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن) وبين الجمل الباقية، فهي أن جوده الذي في رمضان الذي فضل على جوده في غيره، إنما كان بأمرين، أحدهما بكونه في رمضان، والآخر بملاقاته جبريل، عليه الصلاة والسلام، ومدارسته معه القرآن، ولما كان ابن عباس، رضي الله عنهما، في صدد بيان أقسام جوده، على سبيل تفضيل بعضه على بعض، أشار فيه إلى بيان السبب الموجب، لا على جوده، وهو كونه في رمضان، وملاقاته جبريل، فإن قيل ما وجه كون هذين الأمرين سبباً موجباً لأعلى جوده صلى الله عليه وسلم؟ فالجواب، أما رمضان فإنه شهر عظيم، وفيه الصوم، وفيه ليلة القدر، وهو من أشرف العبادات، فلذلك قال: الصوم لي، وأنا أجزي به، فلا جرم يتضاعف ثواب الصدقة، والخير فيه، وكذلك العبادات.[1]

ويذكر النووي أن في هذا الحديث فوائد، منها: بيان عظم جوده صلى الله عليه وسلم، ومنها استحباب إكثار الجود في رمضان، ومنها زيادة الجود والخير عند ملاقاة الصالحين، وعقب فراقهم؛ للتأثر بلقائهم، ومنها استحباب مدارسة القرآن.[2]

---

1. عمدة القاري:1/ 76.
2. صحيح مسلم بشرح النووي:15/ 69.

مضاعفة ثواب الجود والإنفاق في سبل الخير:

إضافة إلى مكانة الجود الذي يتأسى المؤمنون فيه برسولهم الأسوة، صلى الله عليه وسلم، فقد تضافرت الشواهد الشرعية بالتصريح بفضل الجود والبذل والعطاء في سبيل الله، فالنفقة يتضاعف أجرها أضعافاً كثيرة، مصداقاً لقوله عز وجل:{مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[1]

فهذا بيان للكرم الإلهي؛ حيث يجازي سبحانه على النفقة بمضاعفة ثوابها إلى سبعمائة ضعف، وفي هذا إفصاح وتفصيل للوعد المطلق بمضاعفة أجر الإنفاق، حيث قال جل في علاه:{إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً}[2]

فيا لها من تجارة رابحة، مضمونة النماء، الدرهم بسبعمائة، والمائة بسبعة آلاف، مع الوعد فوق ذلك بمضاعفة أجر النفقة إلى أضعاف كثيرة، دون تحديد أرقام، فأي تجارة بالمال بلغت في الدنيا ما بلغت تأتي صاحبها بمثل هذا العائد الربحي؟! هذا عدا عن إضافات تكريمية أخرى، تُمنح لصاحب المال الذي جاد ببعضه في سبيل الله، وفي مصالح الخلق والمحتاجين إلى مال الله الذي آتاه بعض خلقه، فصاروا به أثرياء، وابتلى الله بعض خلقه بالفقر إليه، مما اضطرهم ليأخذوا من عطاء إخوانهم وبذلهم، فما أحرى أصحاب الدثور بالجود والكرم، وبخاصة في النوازل، وتأزم أحوال الناس، لينالوا بما ينفقون رفيع المنازل، وعظيم الدرجات، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

عسى أن ييسر الله تعالى متابعة الحديث عن فضل الجود والإنفاق في سبيله سبحانه، وبخاصة في شهر رمضان، تأسياً بالرسول الأسوة، المنفق كالريح المرسلة في رمضان، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. البقرة:261.
2. النساء:40.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

وَجُودُه في رمضان وغيره

الحلقة الثانية والأخيرة

عـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، أَنَّ النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قال:(مـا مـن يَـوْمٍ يُصْبِـحُ الْعِبَـادُ فيـه، إلا مَلَـكَانِ يَـنْزِلَانِ، فيقـول أَحَدُهُمَـا: اللهـم أَعْـطِ مُنْفِقًـا خَلَفًـا، وَيَقُـولُ الْآخَـرُ: اللهـم أَعْـطِ مُمْسِـكًا تَلَفًـا)[*]

وقفـت الحلقـة السـابقة عنـد تفـوق جـوده عليـه الصـلاة والسـلام، عـلى الخلـق جميعـاً، وتعاظـم هـذه المكرمـة الأخلاقيـة، في شـهر رمضـان المبـارك، فـكان فيـه كالريـح المرسـلة في الجـود، حـين كان جبريـل، عليـه السـلام، يأتيـه كل ليلـة مـن ليـالي رمضـان، يدارسـه القـرآن الكريـم، وفي هـذا بيـان لعظـم جـوده صـلى اللـه عليـه وسـلم، واسـتحباب إكثـار الجـود في رمضـان.

وقـد تضافـرت الشـواهد الشرعيـة بالتصريـح بفضـل الجـود والبـذل والعطـاء في سـبيل اللـه، فالنفقـة يتضاعـف أجرهـا أضعافـاً كثـيرة، الدرهـم بسـبعمائة، والمائـة بسـبعة آلاف، إلى أضعـاف كثـيرة، فهـي تجـارة رابحـة مـع اللـه، مضمونـة النمـاء، لمـن أنفـق المـال في مصالـح الخلـق والمحتاجـين إليـه، ممـن ابتلـوا بالفقـر إليـه، فطـوبى لأصحـاب الدثـور جودهـم وكرمهـم، وبخاصـة في النـوازل، وتـأزم أحـوال النـاس.

---

* صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: {فأما من أعطى واتقى...}(الليل: 5 - 10).

متابعة يومية لحركة الإنفاق:

تواصلاً مع التذكير بأهمية الجود والكرم في سبيل الله، والمكانة الرفيعة التي ينالها المنفقون من مال الله الذي آتاهم، يأتي حديث أبي هريرة آنف الذكر، ليبين أن هناك متابعة ملائكية تجري على الحركة اليومية للأموال، من قبل الذين ملكهم ربهم زمام أمرها وحيازتها، ففي صباح كل يوم ينزل ملكان من السماء، مكلفان من رب العزة، يدعو أحدهما للمنفق بالخلف، ويدعو الآخر للممسك عن الإنفاق بالتلف، فالمال المنفق في سبيل الله يخلفه الله لصاحبه، مصداقاً لقوله عز وجل: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}[1].

ويتماشى مع هذا المعنى، الطمأنة الثابتة للمنفقين بأن المال المنفق لن ينقص من مجمل المال، فرسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال:(ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مَالٍ...)[2]، يذكر النووي وجهين لمعنى هذا الحديث، أحدهما: معناه أنه يبارك فيه، ويدفع عنه المضرات، فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية، وهذا مدرك بالحس والعادة.

والثاني: أنه وإن نقصت صورته، كان في الثواب المرتب عليه، جبر لنقصه، وزيادة إلى أضعاف كثيرة.[3]

فهي طمأنة واضحة وجلية للمنفقين، بأن ما يبذلونه من أموالهم يخلف الله لهم عوضاً عنه، وينميه لهم، من هنا فإن لفظ الزكاة يدل معناه على الطهارة والنماء، والله تعالى يقول:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[4]

1. سبأ:39.
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع.
3. صحيح مسلم بشرح النووي:16 /141
4. التوبة:103

طيب النفس والإخلاص بالإنفاق:

يحتاج الإنفاق في سبيل الله إلى أمور ليرتفع به شأن صاحبه، من ذلك الإخلاص لله فيه، فينفق دون رياء، فأحد السبعة الذين سيظلهم الله بظله، يوم لا ظل إلا ظله: (ورَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى، حتى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ)[1]، والله تعالى يقول: {...وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}[2]، والذين ينفقون أموالهم على هذا الوجه الحسن، يقول فيهم جل شأنه: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[3]

جاء في التفسير: أن قصد الإنفاق في سبيل الله ينبغي أن يكون لنيل رضا الله، والفوز بقربه، وينبغي أن يصدر الإنفاق عن نفوس منشرحة له، سخية به، لا على وجه التردد، وضعف النفس في إخراج الصدقات، وذلك أن النفقة تعرض لها آفتان؛ إما أن يقصد الإنسان بها محمدة الناس ومدحهم، وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردد، فهؤلاء سلموا من هاتين الآفتين، فأنفقوا {ابتغاء مرضات الله} لا لغير ذلك من المقاصد.[4]

همسة في آذان المنفقين:

في ضوء ما تقدم بيانه من معين فضائل الإنفاق في سبيل الله، والتأسي بجوده صلى الله عليه وسلم، الذي يصل حاله به صورة الريح المرسلة، فقد يكون من المفيد الهمس في آذان من لزمتهم النفقات، سواء عن طريق الزكاة أو صدقة الفطر،

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد
2. البقرة:272
3. البقرة: 265
4. تفسير السعدي:1/ 114.

حيث إن بعضاً منهم يحرص أشد الحرص على إبقاء ما سيخرجه في أضيق دوائر عائلته وأسرته والمقربين جداً منه، ممن تجب عليهم في كثير من الأحيان نفقات دائمة، غير الواجب العام على الأنفس والأموال، فالنفقة على الوالدين المحتاجين مثلاً تجب على الأبناء الموسرين، وكذلك العكس، فإن نفقة الأبناء المعسرين تجب على آبائهم الموسرين، فالمطلوب أن يوسع الموسرون على المحتاجين، دون أن يقتصر تركيز إنفاقهم على النفقات الواجبة، والمقادير المحددة، وأن تطيب نفوسهم بالإنفاق، ليصل إلى المحتاجين، وبخاصة عند معاناة الناس من عسر العيش، وقلة الموارد المالية، وضيق ذات اليد.

سائلين الله العلي القدير، أن يفرج عنا وعن خلقه ما ابتلينا به وإياهم، وأن يتقبل صدقات المنفقين في سبيله، على الوجه الذي يرضيه سبحانه، تأسياً بالرسول الأسوة، المنفق كالريح المرسلة، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يربط ثبوت رمضان وشوال بالأهلة ويبشر الصائم بفرحتين

عـن عبـد اللَّـهِ بـن عُمَـرَ، رضي اللـه عنهمـا، أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، ذَكَـرَ رَمَضَـانَ، فقـال: (لَا تَصُومُـوا حـتى تَـرَوْا الْهِـلَالَ، ولا تُفْطِـرُوا حـتى تَـرَوْهُ، فَـإِنْ غُـمَّ عَلَيْكُـمْ فَاقْـدُرُوا لـه)[1]

وعنـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، في حديـث آخـر، قال:(الشَّـهْرُ تِسْـعٌ وَعِـشْرُونَ لَيْلَـةً، فـلا تَصُومُـوا حـتى تَـرَوْهُ، فَـإِنْ غُـمَّ عَلَيْكُـمْ فَأَكْمِلُـوا الْعِـدَّةَ ثَلَاثِـينَ)[2]

مسـاء التاسـع والعشريـن مـن رمضـان، يتحـرى المسـلمون رؤيـة هـلال شـهر شـوال، بنـاء عـلى التوجيهـات النبويـة لهـم، في الحديثـين أعـلاه وغيرهمـا، فـإذا تمـت رؤيتـه في ذاك المسـاء يكـون اليـوم الـذي يليـه يـوم عيـد الفطـر المبـارك، ويصبـح فيـه صائمـو اليـوم مفطريـن، تعبـداً للـه بالفطـر، كمـا تعبـدوا إليـه سـبحانه بالصيـام أيـام شـهر رمضـان، وإذا تعـذرت رؤيـة الهـلال، تكمـل عـدة الشـهر ثلاثـين يومـاً، ويكـون اليـوم التـالي للثلاثـين هـو يـوم الفطـر المبـارك، فمسـألة تحديـد يـوم العيـد مرتبطـة برؤيـة هـلال شـهر شـوال، الـتي ينبغـي تحديدهـا مـن الجهـة المخولـة بذلـك، بنـاء عـلى معايـير الـشرع الحنيـف، وينبغـي لعمـوم المسـلمين في بلادنـا فلسـطين متابعـة مـا سـيصدر عـن دار الإفتـاء الفلسـطينية بعـد غـروب شـمس نهـار اليـوم التاسـع والعشريـن مـن رمضـان بالخصـوص، حيـث يعلـن عـن ذلـك عـبر وسـائل الإعـلام الرسـمية والخاصـة، دون أن يلتفتـوا لأي تشـويش أو بلبلـة قـد يحدثهـا بعـض النـاس حـول هـذه المسـألة.

1.صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيتم الهلال...).

2. المصدر نفسه.

فرحة الصائمين حين يفطرون:

بعد ثبوت هلال شهر شوال ينهي الصائمون صيامهم لشهر رمضان المبارك، الذي فرض الله عليهم صيامه، كما فرض الصيام على الذين من قبلهم، لعلهم يتقون، ولعلهم يفرحون كذلك لصيامهم، وفطرهم، ونيل مثوبة ربهم، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (يقول الله عز وجل: الصَّوْمُ لِي، وأنا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ من أَجْلِي، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ؛ فَرْحَةٌ حين يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حين يَلْقَى رَبَّهُ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ من رِيحِ الْمِسْكِ)[1]

نعم تكتمل فرحة الصائمين الأولى يوم عيد الفطر، بانتهائهم من أداء هذا الفرض التعبدي، بعد أن كانوا يفرحون عند غروب شمس كل يوم من أيام رمضان، حين يفطرون ابتهاجاً بأدائهم صيامه، والفرحتان اليومية والسنوية بأداء الصيام ملموسة يعيشها الصائمون دوماً، مصداقاً لحديث رسولهم، صلى الله عليه وسلم، جاء في فتح الباري، عن القرطبي، أن فرح الصائم يكون بزوال جوعه وعطشه، حيث أبيح له الفطر، وهذا الفرح طبيعي، وقيل إن فرحه بفطره إنما هو من حيث إنه أتم صومه، وختم عبادته، ولقي تخفيفاً من ربه، ومعونة على مستقبل صومه.

ويرى ابن حجر أن لا مانع من الحمل على ما هو أعم مما ذكر، ففرح كل أحد بحسبه، لاختلاف مقامات الناس في ذلك، فمنهم من يكون فرحه مباحاً، وهو الطبيعي، ومنهم من يكون مستحباً، وهو من يكون سببه شيئاً مما ذكره.[2]

---

1. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {يريدون أن يبدلوا كلام الله}(الفتح:15)
2. بتصرف عن فتح الباري:118/4.

فهنيئاً للصائمين فرحهم بفطرهم المشروع، هنيئاً لصغارهم وكبارهم، ورجالهم ونسائهم، أن وفقهم الله للصيام، وأبهجهم بالفطر اليومي، وبالعيد نهاية الشهر، والسرور بذلك مشروع، فيسروه لأنفسكم وأهليكم، ووسعوا عليهم مما تطيقون، وشاركوهم البهجة يوم العيد، والفرح فيه.

جزاء الصائمين في الآخرة ومثوبتهم وتكريمهم:

فرح الصائمين لا ينحصر بفطرهم، سروراً بإنجازهم أداء هذه العبادة لربهم، وإنما لهم فرحة ثانية، تكمن في جزائهم وتكريمهم يوم القيامة، كما وعدهم رسولهم، صلى الله عليه وسلم، بقوله: (وإذا لقي ربه فرح بصومه) أي بجزائه وثوابه، وقيل: الفرح الذي عند لقاء ربه، إما لسروره بربه، أو بثواب ربه، على الاحتمالين، ويرجح ابن حجر الثاني، إذ لا ينحصر الأول في الصوم، بل يفرح حينئذ بقبول صومه، وترتب الجزاء الوافر عليه.[1]

ومن تفسير المراد بفرح الصائم عند لقاء الله، أنه السرور بقبول صومه، وترتب الجزاء الوافر عليه.[2]

وقاية وجه الصائم من النار:

من وعود الجزاء المرتب للصائمين، أن الله يباعد وجوههم عن النار، كما جاء في الحديث الصحيح، عن أبي سَعِيدٍ، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول:(مَن صَامَ يَوْمًا في سَبِيلِ اللَّهِ بَعَّدَ اللهُ وَجْهَهُ عن النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا)[3] فحين يكتوي الصائم بالحر الشديد، ويعاني من العطش البالغ، سويعات من نهار، يذكر أهمية مباعدة وجهه عن النار، التي هي أشد حراً، فطوبى للصائمين هذه المكرمة الربانية، أن يقي الله وجوههم النار، التي وقودها الناس والحجارة.

1. فتح الباري:118/4.
2. عمدة القاري: 277/10.
3. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الصوم في سبيل الله.

باب في الجنة خاص للصائمين:

من جزاء الصائمين يوم القيامة، إكرامهم بدخول الجنة من باب خصص لهم، يسمى الريان، فعن سَهْلٍ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال:(إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَه الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ منه الصَّائِمُونَ يوم الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ، لَا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فإذا دَخَلُوا أُغْلِقَ، فلم يَدْخُلْ منه أَحَدٌ)[*]

فلو تدبر الناس في أبعاد هذه المكرمة، لوجدوا الاحترام والتقدير بالغين من الله لعباده الصائمين، ففوق أنهم من أهل الجنة، فإنهم يدعون لدخولها من باب خاص، وإذا كان الناس يبتهجون لما يجدون لأنفسهم الحفاوة في الدنيا الزائلة، والناس يقولون لمن يستضيفونهم فيها: "لاقونا ولا تقرونا"، فكيف بهم وهم يستقبلون بهذه الحفاوة من ربهم وجنده، وهم يدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار؟!

سائلين الله العلي القدير أن يتقبل صيامنا، وأن يباعد بيننا وبين النار، وأن يكرمنا بدخول الجنة من باب الريان، كما وعدنا رسولنا، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحث على الاعتدال في الصيام بعد رمضان

عـن أبي أَيُّـوبَ الْأَنْصَـارِيِّ، رضي اللـه عنـه، أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قال:(مـن صَـامَ رَمَضَـانَ، ثُـمَّ أَتْبَعَـهُ سِـتًّا مـن شَـوَّالٍ، كان كَصِيَـامِ الدَّهْـرِ)[1]

حـين يـودع المسـلمون شـهر رمضـان، يسـتبشرون بعتـق رقابهـم مـن النـار، انطلاقـاً مـن الوعـد بمغفـرة مـا تقـدم مـن ذنـوب الـذي يصـوم رمضـان إيمانـاً واحتسـاباً، إضافـة إلى الاستبشـار بالفـوز بالجنـة، وولوجهـا مـن بـاب الريـان، ومباعـدة وجوههـم عـن النـار، ومعلـوم أن الصيـام لا ينحـصر بالفـرض الخـاص بشـهر رمضـان المبـارك، وإنمـا ينتـشر التطـوع بـه في أيـام العـام، عـدا أيـام محـدودة يمنـع صيامهـا لخصوصياتهـا الشرعيـة، ولحديـث أبي أيـوب أعـلاه، صلـة وثيقـة باسـتمرارية الصيـام بعـد رمضـان، فالرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يعـد الـذي يتطـوع بصيـام سـتة أيـام مـن شـهر شـوال، بعـد أداء الصيـام الواجـب في رمضـان، بثـواب صيـام الدهـر، فيـا لـه مـن جـود وعطـاء كريمـين، يتفضـل اللـه بهمـا عـلى عبـاده الذيـن يقصـدون وجهـه، ويتشـغفون لنيـل رضـاه سـبحانه وثوابـه، فعطـاؤه منـزه عـن الانحسـار، والخـوف مـن نقـص المخـزون، مصداقـاً لقولـه عـز وجـل، في الحديـث القـدسي: (...يـا عِبَـادِي لـو أَنَّ أَوَّلَكُـمْ وَآخِرَكُـمْ وَإِنْسَـكُمْ وَجِنَّكُـمْ قَامُـوا فِي صَعِيـدٍ وَاحِـدٍ، فَسَـأَلُونِي فَأَعْطَيْـتُ كُلَّ إِنْسَـانٍ مَسْـأَلَتَهُ، مـا نَقَـصَ ذلـك مِمَّـا عِنْـدِي، إلا كما يَنْقُـصُ الْمِخْيَـطُ إذا أُدْخِـلَ الْبَحْـرَ...)[2]

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعاً لرمضان
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم

اعتدال في أداء القربات:

التطوع لله بالقربات يأتي في الدرجة الثانية من الأعمال التي يحبها الله تعالى، بعد أداء الفرائض، حيث وعد سبحانه المتقربين إليه بالنوافل بنيل محبته وتوفيقه وحفظه ورعايته، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ قال: من عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلي عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلي مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)[1]

على الرغم من هذا التشجيع على التقرب لله بالنوافل، إلا أن الإفراط فيها غير محمود، فالذي كان يصوم ولا يفطر، لم يكن فاضلاً فيما صنع، فعن أَنَسَ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (جاء ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبي، صلى الله عليه وسلم، يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ من النبي، صلى الله عليه وسلم؟! قد غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، قال أَحَدُهُمْ: أَمَّا أنا، فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وقال آخَرُ: أنا أَصُومُ الدَّهْرَ، ولا أُفْطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إليهم، فقال: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا والله، إني لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)[2]

فالإنسان له في الحياة رسالة يشمل أداؤها التقرب إلى الله في الشعائر، جنباً إلى جنب مع القيام بمتطلبات إعمار الكون، والمحافظة على استمرارية الحياة الإنسانية فيه، فالله جعل الإنسان فيه خليفة، وأرشده لنهج الاعتدال في أداء الواجبات، التي حدد لها الرسول، صلى

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.
2. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح

الله عليه وسلم، إطاراً شرعياً واضحاً، أقره في حديث عَوْنِ بن أبي جُحَيْفَةَ، عن أبيه، القائل: (آخَى النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمِ الآنَ، قَالَ: فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَ سَلْمَانُ)[1]

أحب صيام التطوع لله:

وجدت من بعض المسلمين مغالاة في الحرص على التطوع بالنوافل، ومثل هذه الظاهرة تكررت أشكالها بصورة أو بأخرى بين الحين والآخر، والرد الناجع عليها وجد في الأحاديث الشريفة سالفة الذكر وغيرها، وفي بعضها حدد السقف الأعلى للتطوع بالصيام، فعن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، (ذُكِرَ له صَوْمِي، فَدَخَلَ عَلَيَّ، فَأَلْقَيْتُ له وِسَادَةً من أدم، حَشْوُهَا لِيفٌ، فَجَلَسَ على الأرض، وَصَارَتِ الْوِسَادَةُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فقال: أَمَا يَكْفِيكَ من كل شَهْرٍ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ؟ قال: قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: خَمْسًا، قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: سَبْعًا، قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: تِسْعًا، قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: إِحْدَى عَشْرَةَ، ثُمَّ قال النبي، صلى الله عليه وسلم: لَا صَوْمَ فَوْقَ صَوْمِ دَاوُدَ، عليه السَّلَام، شَطْرَ الدَّهْرِ، صُمْ يَوْمًا، وَأَفْطِرْ يَوْمًا)[2]

هدانا الله لخير الهدى، لنكون إليه أقرب، في شأننا كله، على سنة نبينا الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب صنع الطعام والتكلف للضيف.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم داود، عليه السلام

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يهتف بربه أن ينجز له وعده

عـن ابـن عَبَّـاسٍ، رضي اللـه عنهمـا، قـال: (كان النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يَدْعُـو عِنْـدَ الْكَـرْبِ، يقـول: لَا إِلَـهَ إلا اللـه، الْعَظِيـمُ الْحَلِيـمُ، لَا إِلَـهَ إلا اللـه، رَبُّ السـموات وَالْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيـمِ)[1]

حقيقـة واقعـة مشـاهدة وملموسـة الآثـار، أن خلـق اللـه عـلى مختلـف مشـاربهم وأطيافهـم يتعرضـون خـلال وجودهـم عـلى ظهـر البسـيطة لأحـوال مختلفـة، منهـا المفعمـة بالكـرب والشـدة، متعـددة الأسـباب والأشـكال والآثـار، والرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، الـذي يعلمنـا الدعـاء عنـد الكـرب، كمـا في الحديـث أعـلاه، تعـرض لأنـواع الكـروب، والـتي رافقتـه إلى قبيـل رحيلـه عـن هـذه الدنيـا، فعـن أَنَـسٍ، قـال: (لَمَّـا ثَقُـلَ النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، جَعَـلَ يَتَغَشَّـاهُ، فقالـت فَاطِمَـةُ، عليهـا السَّـلَام: واكـرب أَبَـاهُ! فقـال لهـا: ليـس عـلى أَبِيـكِ كَـرْبٌ بَعْـدَ الْيَـوْمِ، فلمـا مَـاتَ قالـت: يـا أَبَتَـاهُ أَجَـابَ رَبًّـا دَعَـاهُ، يـا أَبَتَـاهْ مـن جَنَّـةُ الْفِـرْدَوْسِ مَـأْوَاهْ، يـا أَبَتَـاهْ إلى جِبْرِيـلَ نَنْعَـاهْ)[2]

المـراد بالكـرب هنـا مـا كان يجـده مـن شـدة المـوت، وكان فيمـا يصيـب جسـده مـن الآلام، كالبـشر، ليتضاعـف لـه الأجـر.[3]

وقولـه: (ليـس عـلى أَبِيـكِ كَـرْبٌ بَعْـدَ الْيَـوْمِ) يعـني لا يصيبـه بعـد اليـوم نَصَـبٌ، ولا يجـد لـه كربـاً، إذا ذهبنـا إلى دار الكرامـة.[4]

1. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب.
2. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي، صلى الله عليه وسلم، ووفاته.
3. فتح الباري، 8 /149.
4. عمدة القاري، 18 /75.

يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ:

يواجه الإنسان الكرب في مواقف وأحوال عديدة، خلال مرضه وفقره وخوفه، وخلال مواجهة ظلم الخلق وقهرهم واضطهادهم، ومن المواقف المشهودة لتضرع الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى ربه ليفرج عنه وصحبه ودينه بطش الأعداء وكيدهم، ما كان منه في ساعة الاستعداد للمواجهة مع أعدائه من قريش يوم بدر، فعن عُمَر بن الْخَطَّابِ، قال: (لَمَّا كان يَوْمُ بَدْرٍ، نَظَرَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثلاثمائة وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللهم أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي، اللهم آتِ ما وَعَدْتَنِي، اللهم إن تُهْلِكْ هذه العِصَابَةَ من أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ في الأرض، فما زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حتى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عن مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أبو بَكْرٍ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ على مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ من وَرَائِهِ، وقال: يا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ الله عز وجل: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ من الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ...} فَأَمَدَّهُ الله بِالْمَلَائِكَةِ)[1]

طلب الحاجات من الله في الأحوال كلها:

تبعاً ليقين المؤمن بأن مرجع الأمور يكون لا محالة إلى الله، فإنه يسارع لطلب حاجاته كلها منه سبحانه؛ لأنه يدرك بأن لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما يمنع، ولا راد لقضائه، وقد ضرب الله في القرآن مثلاً لحالة الإنسان حين تنقطع عنه سبل المساعدات من غير الله، فقال عز وجل: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً}[2]

فبيّن جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا مسهم الضر في البحر؛ أي اشتدت عليهم الريح، فغشيتهم أمواج البحر، كأنها الجبال، وظنوا أنهم لا خلاص لهم

1. صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم.
2. الإسراء: 67.

مـن ذلـك، ضـل عنهـم؛ أي غـاب عـن أذهانهـم وخواطرهـم في ذلـك الوقـت، كل مـا كانـوا يعبـدون مـن دون اللـه جـل وعـلا، فـلا يدعـون في ذلـك الوقـت إلا اللـه جـل وعـلا وحـده، لعلمهـم أنـه لا ينقـذ مـن ذلـك الكـرب وغـيره مـن الكـروب إلا هـو وحـده، جـل وعـلا.[1]

الاستعانة بالصبر والصلاة:

إضافـة إلى دعـاء تفريـج الكـرب، توجـد مُسـاعِدات للخـلاص مـن المحـن والشـدائد الـتي تواجـه المؤمنـين، عـلى رأسـها الاسـتعانة بالصـبر والصـلاة، حسـب توجيـه رب العالمـين، حيث يقـول جـل شـأنه:{يَا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ اسْـتَعِينُواْ بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ إِنَّ اللّـهَ مَـعَ الصَّابِرِيـنَ}[2]

ويقول عز وجل: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ}[3]

والأنبيـاء، عليهـم السـلام، نبهـوا أقوامهـم إلى هـذا السـبيل في مواجهـة المحـن والكـروب، فيقـول تعـالى: {قَـالَ مُـوسَى لِقَوْمِـهِ اسْـتَعِينُوا بِاللّـهِ وَاصْـبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّـهِ يُورِثُهَـا مَـن يَشَـاءُ مِـنْ عِبَـادِهِ وَالْعَاقِبَـةُ لِلْمُتَّقِـينَ}[4]

فمـا أحوجنـا ونحـن اليـوم نواجـه صنـوف الكـروب، مـن أوجـاع الأوبئـة وجوائحهـا، والتوجـس منهـا، وتكالـب الأعـداء عـلى أرضنـا ومقدسـاتنا، الذيـن يعيثـون في أوسـاطنا فسـاداً، فيحرقـون الأرض والـزرع، ويقلعـون الشـجر المثمـر، ويحرقـون الشـجرة المباركـة، الـتي يـكاد زيتهـا يـضيء ولـو لـم تمسسـه نـار، انتقامـاً مـن خضارهـا وخيرهـا وزيتهـا وأصحابهـا، إلى الاسـتعانة بالصـبر والصـلاة والدعـاء إلى اللـه سـبحانه، أن ينتـصر لهـا ولنـا منهـم، وأن يسـلط عـلى الظالمـين جنـده، الذيـن يأتمـرون بأمـره، ولا يعصونـه، فـلا ملجـأ لنـا فيمـا نحـن فيـه إلا إلى اللـه، ذي القـوة المتـين، الـذي سـلط عـلى سـالف الظالمـين الريـح والصيحـة والغـرق، وأرسـل عليهـم طـيراً أبابيـل، ترميهـم بحجـارة مـن سـجيل، وأعـز جنـده، وهـزم الأحـزاب ونـصر عبـده، صـلى اللـه وسـلم عليـه، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وعـلى أصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. أضواء البيان، 3/ 171.
2. البقرة: 153.
3. البقرة: 45.
4. الأعراف: 128.

ومناسبة اعتكافه في شوال

عن يحيى بن سَعِيدٍ، عن عَمْرَةَ بِنْتِ عبد الرحمن، عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت:(كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَعْتَكِفُ في كل رَمَضَانٍ، وإذا صلى الْغَدَاةَ، دخل مَكَانَهُ الذي اعْتَكَفَ فيه، قال: فَاسْتَأْذَنَتْهُ عَائِشَةُ أَنْ تَعْتَكِفَ، فَأَذِنَ لها، فَضَرَبَتْ فيه قُبَّةً، فَسَمِعَتْ بها حَفْصَةُ، فَضَرَبَتْ قُبَّةً، وَسَمِعَتْ زَيْنَبُ بها، فَضَرَبَتْ قُبَّةً أُخْرَى، فلما انْصَرَفَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، من الْغَدَاةِ، أَبْصَرَ أَرْبَعَ قِبَابٍ، فقال: ما هذا؟! فَأُخْبِرَ خَبَرَهُنَّ، فقال: ما حَمَلَهُنَّ على هذا؟ آلْبِرُّ؟ انْزِعُوهَا، فلا أَرَاهَا، فَنُزِعَتْ، فلم يَعْتَكِفْ في رَمَضَانَ، حتى اعْتَكَفَ في آخِرِ الْعَشْرِ من شَوَّالٍ)[*]

وَدّعَ المسلمون شهر رمضان، الذي وُعِد من صامه، وقام ليله، بأن يغفر الله له ما تقدم من ذنبه، وها هم يستعدون لوداع شهر شوال التالي لرمضان في الترتيب الزماني، وقد حث عليه الصلاة والسلام، على صيام ستة أيام من شوال، ليكون من يستجيب لهذا الحث بعد صيامه رمضان، كمن صام الدهر، وفي لفتة ذات صلة اعتكف صلى الله عليه وسلم، في شوال، على غير عادته من الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان.

مناسبة التحول للاعتكاف في شوال:

في حديث عائشة أعلاه، توضح رضي الله عنها، مناسبة اعتكافه صلى الله عليه وسلم، في شوال، فقد اختارت ثلاث من نسائه الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، ولما علم صلى الله عليه وسلم، بذلك، سأل عما حملهن على ما أقدمن عليه، هل هو البر؟ ويبدو أنه لم يرق له ما كان منهن، وأنه لم يتأكد من سلامة النوايا الكامنة

* صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في شوال.

وراء إقبالهن على ضرب قباب للاعتكاف، بدليل أمره بنزع القباب التي ضربنها، بما في ذلك القبة المخصصة لاعتكافه المعتاد، واستعاض عن اعتكافه في ذاك العام في العشر الأواخر من رمضان، إلى الاعتكاف في شهر شوال الذي يعقبه، جاء في عمدة القاري، أن قوله:(أربع قباب) واحدة منها لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وثلاث لعائشة وحفصة وزينب، وقوله:(ما حملهن) ما نافية، والبر في قوله: (هل هو البر؟) فاعل حمل، أو ما استفهامية، وآلبر بهمزة الاستفهام مرفوع على أنه مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره آلبر كائن، أو حاصل، وقوله: (انزعوها) أي القباب المذكورة، من النزع، وهو القلع.[1]

يقول ابن حجر العسقلاني: وكأنه صلى الله عليه وسلم، خشي أن يكون الحامل لهن على ذلك المباهاة، والتنافس الناشئ عن الغيرة، حرصاً على القرب منه خاصة، فيخرج الاعتكاف عن موضوعه، أو لما أذن لعائشة وحفصة أولاً، كان ذلك خفيفاً بالنسبة إلى ما يفضي إليه الأمر، من توارد بقية النسوة على ذلك، فيضيق المسجد على المصلين، أو بالنسبة إلى أن اجتماع النسوة عنده، يُصيره كالجالس في بيته، وربما شغلنه عن التخلي لما قصد من العبادة، فيفوت مقصود الاعتكاف.[2]

أهمية الإخلاص والتحذير من الخلل فيه:

في تحوله صلى الله عليه وسلم، إلى الاعتكاف في شوال في ذاك العام، في المناسبة المشار إليها أعلاه، تنبيه إلى منزلة الإخلاص لله في أداء العبادات؛ فرائضها ونوافلها، فهو الأولى بالاهتمام والرعاية، ومن الشواهد المؤصلة لهذا التنبيه، الحديث المشهور، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إنما الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أو إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه)[3]

1. عمدة القاري:11 /156.
2. فتح الباري:4 /276.
3. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

ومـن جوانـب بيـان أهميـة الإخـلاص التحذيـر الشـديد مـن الخلـل فيـه، مـا رواه أبـو هريـرة، رضي اللـه عنـه، قـال: (سـمعت رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يقـول: إِنَّ أَوَّلَ النـاس يُقْـضَى يـوم الْقِيَامَـةِ عليـه، رَجُـلٌ اسْتُشْـهِدَ، فَـأُتِيَ بِـهِ، فَعَرَّفَـهُ نِعَمَـهُ، فَعَرَفَهَـا، قـال: فمـا عَمِلْـتَ فيهـا؟ قـال: قَاتَلْـتُ فِيـكَ حـتى اسْتُشْـهِدْتُ، قـال: كَذَبْـتَ، وَلَكِنَّـكَ قَاتَلْـتَ لِأَنْ يُقَـالَ جَـرِيءٌ، فَقَـدْ قِيـلَ، ثُـمَّ أُمِـرَ بِـهِ فَسُـحِبَ عـلى وَجْهِـهِ، حـتى أُلْقِـيَ فِي النَّـارِ، وَرَجُـلٌ تَعَلَّـمَ الْعِلْـمَ، وَعَلَّمَـهُ، وَقَـرَأَ الْقُـرْآنَ، فَـأُتِيَ بِـهِ فَعَرَّفَـهُ نِعَمَـهُ، فَعَرَفَهَـا، قـال: فمـا عَمِلْـتَ فيهـا؟ قـال: تَعَلَّمْـتُ الْعِلْـمَ، وَعَلَّمْتُـهُ، وَقَـرَأْتُ فِيـكَ الْقُـرْآنَ، قـال: كَذَبْـتَ، وَلَكِنَّـكَ تَعَلَّمْـتَ الْعِلْـمَ لِيُقَـالَ عَالِـمٌ، وَقَـرَأْتَ الْقُـرْآنَ لِيُقَـالَ هـو قَـارِئٌ، فَقَـدْ قِيـلَ، ثُـمَّ أُمِـرَ بِـهِ فَسُـحِبَ عـلى وَجْهِـهِ حـتى أُلْقِـيَ فِي النَّـارِ، وَرَجُـلٌ وَسَّـعَ اللـه عليـه، وَأَعْطَـاهُ مـن أَصْنَـافِ الْمَـالِ كُلِّـهِ، فَـأُتِيَ بِـهِ، فَعَرَّفَـهُ نِعَمَـهُ، فَعَرَفَهَـا، قـال: فمـا عَمِلْـتَ فيهـا؟ قـال: مـا تَرَكْـتُ مـن سَـبِيلٍ تُحِـبُّ أَنْ يُنْفَـقَ فيهـا إلا أَنْفَقْـتُ فيهـا لـك، قـال: كَذَبْـتَ، وَلَكِنَّـكَ فَعَلْـتَ لِيُقَـالَ هـو جَـوَادٌ، فَقَـدْ قِيـلَ، ثُـمَّ أُمِـرَ بِـهِ فَسُـحِبَ عـلى وَجْهِـهِ، ثُـمَّ أُلْقِـيَ فِي النَّـارِ)[*]

فالأدلـة مـن القـرآن الكريـم، والسـنة النبويـة، تتضافـر في بيـان أهميـة الإخـلاص في الأعمـال، والتحذيـر مـن العواقـب الوخيمـة للخلـل فيـه، والنمـاذج الـتي تيـسرت الإشـارة إليهـا آنفـاً، شـاهدة للتركـيز عـلى هـذه الأهميـة، حسـب مـا ورد عنـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وعـلى أصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

* صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

الفصل الثاني / معاملات

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	يأمر بالحجر الصحي عند تفشي الأوبئة - الحلقة الأولى	35
.2	يأمر بالحجر الصحي عند تفشي الأوبئة - الحلقة الثانية والأخيرة	38
.3	يتضرع للمرضى بالشفاء	42
.4	يمني مريضاً مُشفياً على الموت بالحياة والبقاء - الحلقة الأولى	45
.5	يمني مريضاً مُشفياً على الموت بالحياة والبقاء الحلقة الثانية والأخيرة	48
.6	تزوج عائشة، رضي الله عنها، في شوال	51
.7	يعزز التكافل بين الناس في العيد	54
.8	يوازن بين حق الدائن وظروف المدين	58

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يأمر بالحجر الصحي عند تفشي الأوبئة

الحلقة الأولى

عـن أُسَـامَة بـن زَيْـدٍ، يُحَـدِّث سَـعْدًا، عـن النـبي، صـلى الله عليـه وسـلم، أنه قـال:(إذا سَـمِعْتُمْ بِالطَّاعُـونِ بِـأَرْضٍ فـلا تَدْخُلُوهَـا، وإذا وَقَـعَ بِـأَرْضٍ وَأَنْتُـمْ بهـا فـلا تَخْرُجُـوا منهـا)(*)

الطاعـون مـن الأمـراض الفتاكـة، الـتي تنـدرج في قائمتهـا الأوبئـة المعروفـة قديمهـا وحديثهـا، والـتي لـن يكـون آخرهـا وبـاء "كورونـا"، والأوبئـة لهـا أعـراض وآثـار، قـد تفـضي إلى حصـد أرواح كثـير مـن النـاس، إن تركـت دون وقايـة منهـا وعـلاج واحتياطـات، والإسـلام يحـترم حيـاة الإنسـان، ويعـزز مقومـات حفظهـا، ويحـرم الاعتـداء عليهـا، ومـن مقاصـده الرئيسـة حفـظ الأبـدان، ومـن فحـوى قيمـه أن حفـظ الأبـدان مقـدم عـلى حفـظ الأديـان، والتطبيقـات العمليـة لهـذا كثـيرة.

ومـن منهـج الإسـلام في مواجهـة الأوبئـة تحجيمهـا إلى أضيـق نطـاق، ومن ذلـك العلاج الوقـائي منهـا، بمـا بـات يعـرف عالميـاً بالحَجْـر، أو العـزل الصحـي، حيـث كان للرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، سـبق تاريخـي في الحـث عـلى الأخـذ بـه، مـع أن المسـألة صحيـة، إلا أن حفـظ الوجـود البـشري، ودرء المخاطـر عنـه، أمـر عـني بـه الإسـلام أيمـا عنايـة، كيـف لا؟! وقد اعتـبر اللـه مـن يقتـل نفسـاً بغـير حـق، كمـن يقتـل النـاس جميعـاً، ومـن يسـاعد في المحافظـة عـلى بقائهـا وحياتهـا، فكأنمـا أحيـا النـاس جميعـاً، فقـال عـز وجل:{مِـنْ أَجْـلِ ذَلِـكَ كَتَبْنَـا عَـلَى بَـنِي إِسْرَائِيـلَ أَنَّـهُ مَـن قَتَـلَ نَفْسـاً بِغَـيْرِ نَفْـسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَـا قَتَـلَ النَّـاسَ جَمِيعـاً

* صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون.

وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ...}[1]، فضوابط حفظ الصحة البدنية، تتوافق مع ضوابط الصحة العقلية والعقائدية للناس، وتنطلق من مبادئ راسخة، وشريعة بينة، لا عوج فيها.

الحجر - العزل- الصحي:

وباء الطاعون عرف منذ زمن بعيد، ويعد من الأمراض السارية الفتاكة، التي تنتقل من إنسان مصاب إلى آخر، بالعدوى، ومن متطلبات الوقاية منه عزل البيئة التي يظهر فيها، وحصره فيها، حتى يعزل الوباء عن التفشي في بيئات أخرى، وموضوع الحجر، أو العزل الصحي، لمن يصابون بالأمراض السارية، تتعاطى معه الجهات الصحية والطبية المسؤولة، بعناية وحرص واهتمام.

ولقد كان للإسلام سبق واضح في الحث على الحجر الصحي، ومثل هذا الحث الناجع لمواجهة الأوبئة يشكل نبراساً واضحاً للمسلمين أولاً، وللناس كافة أيضاً، على هذا الصعيد الحيوي والخطير.

نَفِرُ من قدر الله إلى قدر الله:

لم يقتصر الحث على الحجر الصحي وقاية من الأوبئة الفتاكة أو الأمراض السارية، على الجانب النظري، بل كانت له تطبيقات عملية وقعت في صدر الإسلام، فعن عبد اللَّهِ بن عَبَّاسٍ، أَنَّ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، خَرَجَ إلى الشأم، حتى إذا كان بِسَرْغَ [2]، لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ: أبو عُبَيْدَةَ بن الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قد وَقَعَ بِأَرْضِ الشام، قال ابن عَبَّاسٍ: فقال عُمَرُ: ادْعُ لي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قد وَقَعَ بالشأم، فَاخْتَلَفُوا، فقال بَعْضُهُمْ: قد خَرَجْتَ لِأَمْرٍ، ولا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عنه، وقال بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ الناس وَأَصْحَابُ رسول اللَّهِ،

1. المائدة:32.

2. بِسَرْغَ، (قرية بوادي تبوك، وقيل هي مدينة افتتحها أبو عبيدة، وهي اليرموك)(شرح الزرقاني:4/ 294).

صلى الله عليه وسلم، ولا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ على هذا الْوَبَاءِ، فقال: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قال: ادعوا لي الْأَنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ، فقال: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قال: ادْعُ لي من كان هَا هُنَا من مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ من مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ، فلم يَخْتَلِفْ منهم عليه رَجُلَانِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ ولا تُقْدِمَهُمْ على هذا الْوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ في الناس: إني مُصَبِّحٌ على ظَهْرٍ، فَأَصْبِحُوا عليه. قال أبو عُبَيْدَةَ ابن الْجَرَّاحِ: أَفِرَارًا من قَدَرِ اللَّهِ؟

فقال عُمَرُ: لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ؟ نعم نَفِرُّ من قَدَرِ اللَّهِ إلى قَدَرِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لو كان لك إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا له عُدْوَتَانِ؛ إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إن رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ؟ قال: فَجَاءَ عبد الرحمن بن عَوْفٍ - وكان مُتَغَيِّبًا في بَعْضِ حَاجَتِهِ- فقال: إِنَّ عِنْدِي في هذا عِلْمًا، سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول:(إذا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بها؛ فلا تَخْرُجُوا فِرَارًا منه، قال: فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ، ثُمَّ انْصَرَفَ)[*]

فما أجمل رد عمر بن الخطاب، على من احتج على ترك الذهاب إلى بلد فيه وباء كالطاعون، حيث قال:(نَفِرُّ من قَدَرِ اللَّهِ إلى قَدَرِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لو كان لك إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا له عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إن رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ).

وحيث إن المقام يضيق هنا عن التوسع في بيان أبعاد الأمر بالحجر الصحي عند تفشي الأوبئة، فنسأل الله أن ييسر متابعة الحديث عن تفاصيل أخرى تتعلق بهذا الأمر لاحقاً، انطلاقاً مما جاء بالخصوص عن الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يأمر بالحجر الصحي عند تفشي الأوبئة

الحلقة الثانية والأخيرة

عـن عَائِشَـةَ، رضي اللـه عنهـا، زَوْجِ النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قالـت: (سَـأَلْتُ رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، عـن الطَّاعُـونِ؟ فَأَخْـبَرَنِي أَنَّـهُ عَـذَابٌ يَبْعَثُـهُ اللـه عـلى مـن يَشَـاءُ، وَأَنَّ اللَّـهَ جَعَلَـهُ رَحْمَـةً لِلْمُؤْمِنِـين، ليـس مـن أَحَـدٍ يَقَـعُ الطَّاعُـونُ فَيَمْكُـثُ فِي بَلَـدِهِ صَابِـرًا مُحْتَسِـبًا، يَعْلَـمُ أَنَّـهُ لَا يُصِيبُـهُ إلا مـا كَتَـبَ اللـه لـه، إلا كان لـه مِثْـلُ أَجْـرِ شَـهِيدٍ)[*]

انطلاقـاً مـن الحـرص عـلى إبـراز عنايـة الإسـلام بحفـظ الوجـود البـشري، ودرء المخاطـر عنـه، أشـارت الحلقـة السـابقة إلى منهـج الإسـلام في مواجهـة الأوبئـة، والمتمثـل في حصرهـا بأضيـق نطـاق، ومـن ذلـك ممارسـة العـلاج الوقـائي منهـا، بمـا بـات يعـرف عالميـاً بالحجـر - أو العـزل الصحـي- حيـث كان للرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، سـبق تاريخـي في الحـث عـلى الأخـذ بـه، وتمثـل هـذا المنهـج السـلف الصالـح، عـلى رأسـهم الصحابـة، رضي اللـه عنهـم، فكانـت لهـم تطبيقـات عمليـة وقعـت في صـدر الإسـلام، كمـا كان في موقـف أمـير المؤمنـين عمـر بـن الخطـاب، رضي اللـه عنـه، لمـا رجـع عـن الذهـاب إلى بـلاد الشـام، حـين علـم أن وبـاء الطاعـون يسـتشري فيهـا، وتلخـص تبريـره لعـذر العـودة بقولـه: "نفـر مـن قـدر اللـه إلى قـدر اللـه"

*صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه.

التوفيق بين التوكل، والوقاية والعلاج:

مثّل قرار عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بالعدول عن الذهاب بالأعداد المرافقة له إلى بلاد الشام بسبب الطاعون، نبراساً لمنهج الإسلام في التعاطي مع قضايا يخطئ من يأخذ ببعض المواقف، أو النصوص حيالها، قبل النظر في مجموع الأحكام والشواهد ذات الصلة بها، لاستخلاص الحكم الشرعي المناسب لها، فلا يصلح بحجة الإيمان بالقدر فتح الباب على مصراعيه لمخالطة المصابين بالأوبئة، ولا تصلح مجافاة الإيمان، وقيم الأديان عند التعامل مع الأوبئة والمصابين بها، وحصر التعاطي مع الأدوية والعلاج بتجرد عن منظومة المبادئ والقيم، فالإسلام بعقيدته وشريعته وقيمه يراعي هذه النواحي بتوازن فريد، فمن مقاصده حفظ الأبدان، وبلغ في عنايته بالصحة البدنية والحياتية للناس مبلغاً عظيماً، وفي الوقت ذاته ربط الإصابة بالأوبئة بالمصير الآخروي.

فالإسلام يعنى بالوقاية من الأمراض الصحية وعلاجها ضمن منهج واضح، والوقاية من الأوبئة الفتاكة، والأمراض السارية، من خلال الحجر أو العزل الصحي، لها بعدان عمليان رئيسان:

أحدهما حصر المرض، ومنعه من التفشي خارج البيئة السكانية التي اكتشف فيها، ليكون تحت السيطرة والنظر والمتابعة.

والثاني حماية البيئات السكانية الأخرى من أن ينتقل إليها المرض، أو الوباء الساري، وبالتالي يوضع حد لتلك المخاطر والخسائر والأضرار، وتتحقق السلامة للوجود البشري برمته.

وإلى جانب الوقاية من الأمراض، وحصرها في مناطق ظهورها حماية للمناطق الأخرى وساكنيها، فإن الإسلام الحنيف يحث على التداوي والعلاج، من منطلق الإيمان بأن الداء والدواء مخلوقان، وإبراهيم، عليه السلام، يؤمن بذلك، لكنه تأدب مع الله، لما نسب الداء إلى نفسه، والشفاء إلى الله، فقال معبراً عن إيمانه بهذه المبادئ: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}[*]

* الشعراء: 80.

والله جعل لكل داء دواء، فعن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قال: (لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فإذا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ، بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عز وجل) [1].

ويشجع الإسلام الناس على التداوي، من خلال التأكيد والطمأنة بأن لكل داء دواء وشفاء، فيقول النبي، صلى الله عليه وسلم : (ما أَنْزَلَ الله دَاءً، إلا أَنْزَلَ له شِفَاءً) [2]

دعم معنويات المرضى:

الإسلام يعنى بالنواحي النفسية والمعنوية للمرضى، فيقوي معنوياتهم، وهم يواجهون الأسقام، ويبعدهم عن الهلع خوفاً منها، ويعد المصابين بالأوبئة الفتاكة بثواب عظيم في الآخرة، ويمنح المصاب بالوباء الفتاك وسام الشهادة، فأي مريض يصبر على ألم المرض، ويحتسب الأجر من الله، فهو يؤمن بأن الله سيجزيه على معاناته من الأسقام مهما اضمحل ألمها ووجعها، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (ما يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ من شَوْكَةٍ فما فَوْقَهَا، إلا رَفَعَهُ الله بها دَرَجَةً، أو حَطَّ عنه بها خَطِيئَةً) [3]

ووعد الله الصابرين على الابتلاء بنقص الأموال والأنفس بجزيل الثواب، فقال عز وجل: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [4]

والرسول، صلى الله عليه وسلم، في بعض أحاديثه، ومنها الحديث المذكور آنفاً في صدر هذا المقال، وصف وباء الطاعون بوصفين متغايرين، فوصفه بأنه عذاب، ووصفه بأنه رحمة للمؤمنين، ويستخلص العيني من هذا الحديث بأن فيه بيان عناية الله تعالى بهذه الأمة المكرمة؛ حيث جعل ما وعد عذاباً لغيرهم، رحمة لهم. [5]

---

1. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي.
2. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء.
3. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك...
4. البقرة: 155.
5. عمدة القاري، 16 /59.

فالوبـاء ألـم وأوجـاع، وقـد ينتهـي بمصيبـة المـوت، ونقـص الأنفـس، وغالبـاً مـا يوجـد الفـزع منـه والهـوس، فهـو عـلى هـذا النحـو عـذاب.

ويكـون رحمـة لمـن أصيـب بـه فاحتسـب وصـبر، لأن الصابريـن يوفـون أجورهـم بغـير حسـاب، وعليهـم صلـوات مـن ربهـم ورحمـة وهـم المهتـدون، وبعضهـم ينـال بالوبـاء الـذي أصابـه منزلـة الشـهادة، مصداقـاً لقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (الشُّـهَدَاءُ خَمْسَـةٌ؛ الْمَطْعُـونُ، وَالْمَبْطُـونُ، وَالْغَـرِقُ، وَصَاحِـبُ الْهَـدْمِ، وَالشَّـهِيدُ فِي سَـبِيلِ اللَّـهِ) [1]، وقولـه: (الطَّاعُـونُ شَـهَادَةٌ لِـكُلِّ مُسْـلِمٍ) [2]

سـائلين اللـه العـلي القديـر العفـو والعافيـة، والنجـاة مـن الأوبئـة وشرهـا، وصحبـة الرسـول الأسـوة محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الشهادة سبع سوى القتل.
2. التخريج نفسه.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يتضرع للمرضى بالشفاء

عن عَائِشَةَ، قالت: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إذا أتى الْمَرِيضَ، يَدْعُو له، قال: أَذْهِبِ الباس رَبَّ الناس، وَاشْفِ أنت الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إلا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا)[1]

في أجواء المرض والوباء، يجدر التذكير بما يتيسر من نهج ديننا الحنيف في مواجهة الأسقام البدنية والصحية، فالمرض أولاً وأخيراً يصاب به المريض، بقدر الله، ويشفى منه، بقدر الله كذلك، مصداقاً لقوله تعالى المنسوب إلى إبراهيم، عليه السلام:{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}[2] وما نسب إبراهيم المرض لنفسه إلا تأدباً مع الله، وإلا فهو والشفاء منه سبحانه، وفي الحديث أعلاه دعاء كان عليه الصلاة والسلام، يدعو به للمريض الذي يعوده، والمراد بإذهاب البأس، إزالة شدة المرض.[3]

لا بأس، طهور:

الناس يحتاجون إلى ربهم في سرائهم وضرائهم، وأحوالهم كلها، يدعونه كما أمرهم تضرعاً وخوفاً، فقال تعالى:{ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[4]، والدعاء للمرضى على وجه الخصوص يمكن أن يقوموا به أنفسهم، ويمكن أن يتضرع لهم به غيرهم من الخلق، وبخاصة الأهل والأحباب، ومن حق المسلم على أخيه أن يعوده إذا مرض، ويدعو له بالشفاء، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما،(أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، دخل على أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ، قال: وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، إذا دخل على مَرِيضٍ يَعُودُهُ، قال: لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إن شَاءَ الله، فقال له: لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إن شَاءَ الله، قال: قلت

1. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض.
2. الشعراء:80.
3. مرقاة المفاتيح:4/ 9.
4. الأعراف:55.

طَهُـورٌ؟! كَلَّا، بَـلْ هِـيَ حُمَّـى تَفُـورُ- أو تَثُـورُ- عـلى شَـيْخٍ كَبِـيرٍ، تُزِيـرُهُ الْقُبُـورَ، فقـال النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: فَنَعَـمْ إِذًا)[1]

فهذا الحديث محدود الكلمات، لكنه عظيم الفائدة، والرجاء، والأنس.

قوله:(يعـوده) مـن عـاد المريـض إذا زاره[2]، وجـاء في مرقـاة المفاتيـح، أن عيادتـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، المـرضى فيـه كمـال تواضعـه، المتضمـن لرأفتـه ورحمتـه، وتعليمـاً لأمتـه، وكان مـن عادتـه، (إذا دخـل عـلى مريـض، قـال: لا بـأس، طهـور) أي لا مشـقة، ولا تعـب عليـك مـن هـذا المـرض بالحقيقـة؛ لأنـه مطهـرك مـن الذنـوب، إن شـاء اللـه تعـالى، وقـول الأعرابي:(بـل حمـى تفـور) أي تغـلي في بـدني، كغـلي القـدور، وقولـه: (تزيـره القبـور) أي تحملـه الحمـى عـلى زيـارة القبـور، وتجعلـه مـن أصحـاب القبـور، فقـال النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: أي غضبـاً عليه،(فنعـم إذا) وفي نسـخة إذن، أي إذن هـذا المـرض ليـس بمطهـرك، كمـا قلـت، إذ أبيـت إلا اليـأس وكفـران النعمـة، فنعـم إذاً يحصـل لـك مـا قلـت، إذ ليـس جـزاء كفـران النعمـة إلا حرمانهـا.[3]

الحمى تُذهب الخطايا:

مـن أبـرز علامـات الإصابة بوبـاء "كورونا" الحـرارة العاليـة، إلى جانب مؤشرات أخـرى، وارتفاع حـرارة البـدن إلى مـا فـوق الطبيعـي، يـدل غالبـاً عـلى حالـة مرضيـة، والمـرض أسـبابه كثيرة، وصـدق رسـول اللـه، صـلى اللـه عليـه وسـلم، لمـا وصـف حـال الجسـد المعتـل، فقـال: (...مَثَـلُ الْجَسَـدِ إِذَا اشْـتَكَى مِنْـهُ عُضْـوٌ تَدَاعَـى لَـهُ سَـائِرُ الْجَسَـدِ بِالسَّـهَرِ وَالْحُمَّـى)[4]، فالحمى علامـة دالة عـلى الإصابة بمـرض وإعيـاء، ومـع ذلـك تـم النهـي عن لعنهـا، لربطهـا برفـع الدرجـات وتكفير السـيئات، فعـن جَابِر ابـن عبـد اللَّـهِ، أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، (دخـل عـلى أُمِّ السَّـائِبِ -أو أُمِّ الْمُسَـيب- فقـال: مـا لَـكِ يـا أُمَّ السَّـائِبِ - أو يـا أُمَّ الْمُسَـيبِ- تُزَفْزِفِـينَ؟ قالـت: الْحُمَّـى، لَا بَـارَكَ اللـه فيها، فقـال: لَا تسـبي الْحُمَّـى، فَإِنَّهَـا تُذْهِـبُ خَطَايَـا بَـنِي آدَمَ، كمـا يُذْهِـبُ الْكِـيرُ خَبَـثَ الْحَدِيـدِ)[5]

---

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.
2. عمدة القاري:25 /148.
3. مرقاة المفاتيح:4 /9.
4. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم
5. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض...

ويؤكد هذا المعنى المطمئن للمرضى، وعدهم بالجزاء على ما يعانون من ألم، حيث يقول رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم:(ما يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ من شَوْكَةٍ فما فَوْقَهَا، إلا رَفَعَهُ الله بها دَرَجَةً، أو حَطَّ عنه بها خَطِيئَةً)[1]

لجوء المرضى إلى الله بالتزامن مع التداوي:

يظن بعض الناس مخطئاً بأن التركيز على ربط الشفاء بالقدر، ووعد المرضى بالأجر، والتركيز على التضرع لهم بالشفاء، يعني التراخي عن التداوي، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، لما ذكر الحمى حث على إبرادها بالماء، حيث قال:(الْحُمَّى من فَوْرِ جنهم، فَأَبْرِدُوهَا عَنْكُمْ بِالْمَاءِ)[2]، فالحمى حرارة، ومن وسائل خفضها الماء، الذي يستخدمه المرضى عن طريق الكمادات وغيرها، وهذا ما أرشد إليه نبينا الأسوة، صلى الله عليه وسلم، فلم يتجاهل الدواء، وقد قال:(ما أَنْزَلَ الله دَاءً إلا أَنْزَلَ له شِفَاءً)[3]، وقال:(لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فإذا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ، بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عز وجل)[4] بما يدل على أن الداء يلزمه دواء، وليس دعاء فحسب.

والحث على التداوي لا يقلل كذلك من أهمية الدعاء، الذي مارسه المبتلون بالداء من الأنبياء والصالحين، وقد قال تعالى عن مَثَلَهم الأعظم في الصبر على الداء: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[5]

أذهب الله البأس عنا وعن عباده المبتلين بالأمراض، ويسر لنا ولهم شفاء عاجلاً لا يغادر سقماً، وهدانا للمحافظة على عيادة المرضى، والتضرع لهم بالشفاء، تأسياً برسولنا الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض...
2. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة.
3. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء .
4. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي.
5. الأنبياء:83.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يـُمني مريضاً مُشفياً على الموت بالحياة والبقاء

الحلقة الأولى

عـن عَامِـر بـن سَـعْدِ بـن أبي وَقَّـاصٍ، عـن أبيـه، قال:(مَرِضْـتُ بِمَكَّـةَ مَرَضًـا، فَأَشْـفَيْتُ منـه عـلى الْمَـوْتِ، فَأَتَـانِي النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يَعُـودُنِي، فقلـت: يـا رَسُـولَ اللَّـهِ، إِنَّ لِي مَـالًا كَثِـيرًا، وَلَيْـسَ يَرِثُـنِي إلا ابْنَـتِي، أَفَأَتَصَـدَّقُ بِثُلُـثَيْ مَـالِي؟ قـال: لَا، قـال: قلـت: فَالشَّـطْرُ؟ قـال: لَا، قلـت: الثُّلُـثُ؟ قـال: الثُّلُـثُ كَبِـيرٌ، إِنَّـكَ إن تَرَكْـتَ وَلَـدَكَ أَغْنِيَـاءَ خَـيْرٌ مـن أَنْ تَتْرُكَهُـمْ عَالَـةً يَتَكَفَّفُـونَ النـاس، وَإِنَّـكَ لَـنْ تُنْفِـقَ نَفَقَـةً إلا أُجِـرْتَ عليهـا، حـتى اللُّقْمَـةَ تَرْفَعُهَـا إلى في امْرَأَتِـكَ، فقلـت: يـا رَسُـولَ اللَّـهِ، آأخلـف عـن هِجْـرَتِي؟ فقـال: لَـنْ تُخَلَّـفَ بَعْـدِي، فَتَعْمَـلَ عَمَـلًا تُرِيـدُ بِـهِ وَجْـهَ اللَّـهِ، إلا ازْدَدْتَ بِـهِ رفعـة وَدَرَجَـةً، ولعـل أَنْ تُخَلَّـفَ بَعْـدِي، حـتى يَنْتَفِـعَ بِـكَ أَقْـوَامٌ، وَيُـضَرَّ بِـكَ آخَـرُونَ...)[*]

عيادة المريض:

المحادثة في هـذا الحديـث الشريـف، تسـتدعي التدبـر في مناحيهـا المختلفـة، فظرفهـا كان خـلال عيـادة الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، لسـعد بـن أبي وقـاص، وهـو يعـاني أوجاعـاً مـن مـرض ألـم بـه، وقـد بلغت بـه الشـدة أن ظن أنـه يحتـضر للمـوت، بدليـل قوله:(فَأَشْـفَيْتُ منـه عـلى الْمَـوْتِ)؛ أي أشرفـت بـه عـلى المـوت، وهـذا مـا نـود التركـيز عليـه، في حـضرة المعانـاة مـن جائحـة الوبـاء المـرضي الـتي تنتـاب العالـم بـأسره في هـذه الأثنـاء، فالقضيـة في الحديـث تتعلـق بمريـض مرضـاً موجعـاً، وصـل بصاحبـه إلى مـا يشـبه حالـة الاحتضـار، وتتعلق في المقابـل بعيـادة هـذا المريـض، وهـي مـن سـنن الإسـلام، وحقـوق المسـلم عـلى أخيـه، مارسـها الرسـول،صلى اللـه عليـه وسـلم، كمـا في هـذا الموقـف وغـيره عمليـاً، وحـث عليهـا

* صحيح البخاري، كتاب الفرائض، باب ميراث البنات.

المسلمين، فقال:(حَقُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ خَمْسٌ، رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ المَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ)[1]

لكن عيادة المريض في ظل وباء (كورونا) الساري تحصر بأضيق نطاق، للضرورات الصحية الوقائية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

رفض الاستسلام للنوازل والجوائح:

يلاحظ أن حديث سعد بن أبي وقاص أعلاه، لم يقف عند عيادة مريض، وإيناسه بذلك فحسب، بل تطرق لقضايا ذات علاقة بحياتي الدنيا والآخرة، ومثلت ردود النبي، صلى الله عليه وسلم، وتعقيباته عليها تشريعاً لسعدٍ والمسلمين من بعده، ومن تلك القضايا، أن سعداً حال إصابته بالوعكة الصحية التي شارف معها على الموت، انتهز فرصة عيادته من قبل النبي، صلى الله عليه وسلم، ليسأله عن الطريقة المثلى للتصرف في ماله الكثير، فقد فكر مع انحصار نسله وقتئذ بابنة، أن يوصي بمعظم ماله في سبيل الله، ويترك لابنته الوحيدة الباقي، فلم يشرع له عليه الصلاة السلام، وصية يزيد قدرها عن ثلث تركته، فهذه مسألة مالية لم يتردد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في إصدار تشريع لها، وهو في حضرة شخص يبدو ظاهره بأنه يحتضر للموت، وهذا النهج هو ما يحرص عليه الإسلام دائماً، فلا استسلام فيه ليأس أو إحباط بسبب نوازل أو جوائح، حتى في حالة المشارفة على الموت، وإنما هو عمل دؤوب يتدافع لإعمار الكون وإسعاد الإنسان، جنباً إلى جنب، مع تحديق النظر للآخرة، والإيمان بأنها الأبقى، والمآل النهائي، ومن مساندات هذا النهج القويم وأدلته الشرعية، أمره تبارك شأنه، بالعمل للدارين في خطين متوازيين، فقال عز وجل: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[2]، والرسول، صلى الله عليه وسلم، حث على العناية بزراعة الأرض، وأدرجها

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز.
2. القصص:77.

ضمن العبادات التي يتقرب بها المرء لربه سبحانه، فقال عليه الصلاة والسلام:(ما من مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أو يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ منه طَيْرٌ، أو إِنْسَانٌ، أو بَهِيمَةٌ، إلا كان له بِهِ صَدَقَةٌ)(*).

وتضمن الحديث أعلاه مسائل أخرى تصب في معين الموازنة بين تحقيق مصالح الدنيا والآخرة، ورفض الاستسلام للجوائح، ومن ذلك:

أجر النفقة على العيال:

فقد ساق الرسول، صلى الله عليه وسلم، لسعد توضيحاً في سياق حصره للحد الأعلى للوصية بالثلث، فقال له:(إِنَّكَ إن تَرَكْتَ وَلَدَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ من أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ الناس)، فالعمل والجد والمثابرة لإسعاد العيال وتأمين نفقاتهم، وسد عوزهم، من القربات التي يتقرب بها المرء لربه جل في علاه، مما يعني أن سعي الإنسان وجدّه يخرج عن دائرة العمل لحياة المرء فحسب، ليمتد إلى دائرة نسله، وهذا يبعد عنه مشاعر الإحباط والكسل، التي يمكن أن تنتاب من يشعر بأنه في طريقه لفراق هذه الدنيا، وترك متعلقاتها، لكنه حين يدرك أنه يؤجر على ما ترك لبنيه من بعده، ليستغنوا به في قضاء مصالحهم، وسد حاجاتهم، دون أن يريقوا ماء وجوههم للآخرين.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الموقف مع مريض يتشاوف للموت، يسترسل في بيان أجر النفقة، حتى تلك البسيطة التي يقدمها المرء وهو يداعب زوجه، فيضع لقمة في فمها، فله بها أجر:(وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً إلا أُجِرْتَ عليها، حتى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا إلى في امْرَأَتِكَ)

وحيث إن المجال يضيق هنا للاسترسال في الحديث عن بقية المسائل التي تضمنها حديث سعد بن أبي وقاص أعلاه، فنرجو أن ييسر الله ذلك في الحلقة القادمة، وصلى الله وسلم، على الرسول الأسوة محمد، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*صحيح البخاري، كتاب الكزارة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يُـمني مريضاً مُشفياً على الموت بالحياة والبقاء

الحلقة الثانية والأخيرة

عـن ثَلَاثَةٍ مـن وَلَـدِ سَـعْدٍ، كلهـم يُحَـدِّثُ عـن أبيـه، (أَنَّ النبي، صـلى الله عليه وسـلم، دخـل عـلى سَـعْدٍ يَعُـودُهُ بِمَكَّـةَ، فَبَـكَى، قـال: مـا يُبْكِيـكَ؟ فقـال: قـد خَشِـيتُ أَنْ أَمُـوتَ بِـالْأَرْضِ الـتي هَاجَـرْتُ منهـا، كمـا مَـاتَ سَـعْدُ بـن خَوْلَـةَ، فقـال النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: اللهـم اشْـفِ سَـعْدًا، اللهـم اشْـفِ سَـعْدًا، ثَـلَاثَ مِـرَارٍ...)[*]

وقفـت الحلقـة السـابقة عنـد محادثـة جـرت بـين الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، والصحـابي سـعد بـن أبي وقـاص، خـلال عيـادة الأخـير مـن مـرض موجـع، ظـن بـه أنـه يواجـه حتفـه، وعيـادة المريـض مـن السـنن الشرعيـة الثابتـة، لكنهـا في ظـل وبـاء "كورونـا" تنحـصر بنطـاق ضيـق منعـاً مـن العـدوى، وحديـث سـعد فيـه مـا يؤكـد عـلى رفـض الاستسـلام للنوازل والجوائـح، ويؤكـد عـلى أن العمـل والجـد والمثابـرة لإسـعاد العيـال، وتأمـين نفقاتهـم، وسـد عوزهـم، مـن القربـات الـتي يتقـرب بهـا المـرء لربـه سـبحانه، ممـا يعـني أن سـعي الإنسـان وجـده يتجـاوزان دائـرة العمـل لحيـاة المـرء فحسـب، ليمتـدا إلى دائـرة نسـله، وذلـك يُبعـد مشـاعر الإحبـاط والكسـل، عمـن يشـعر بأنـه في طريقـه لفـراق هـذه الدنيـا، وتـرك متعلقاتهـا.

طوق النجاة:

المقطـع أعـلاه المقتبـس مـن روايـة لمسـلم عـن ثلاثـة مـن أبنـاء سـعد بـن أبي وقـاص، يظهـر أن سـعداً لمـا عـاده النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، بـكى خشـية أن يمـوت في مكـة، فيفقـد ثـواب الهجـرة، فـرد عليـه النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، بالدعـاء لـه بالشـفاء، في دلالـة واضحـة عـلى أهميـة الدعـاء للمريـض، فهـو بالإضافـة إلى كونـه مـن أدوات رجـاء

* صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث.

شفائه، فإنه يرفع من معنوياته، ويحسن من حالته النفسية، تحت مظلة الإيمان بأن الخير والشر بيد الله، يصيب بأيهما من يشاء، ويرفع أيهما عمن يشاء.

وفي ظلال تفشي "فيروس كورونا كوفيد 19"، وما يحصده من آلاف الإصابات والموتى في معظم أنحاء العالم، بالتزامن مع الافتقار إلى مصل مناسب للوقاية منه، ودواء ناجع لعلاج المصابين به، فإن الأسباب الوقائية والمناعية الأخرى على قسوتها وكثرتها، تضيق نطاق انتشاره ليس إلا، وفي جو كهذا يبحث المتخوفون من الهلاك عن طوق نجاة، وبعضهم رغم، قسوة قلوبهم، يصلون إلى ما وصل إليه فرعون، حين عاين الغرق، في مشهد لافت ومؤثر، صوره القرآن في قوله تعالى:{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[*]، وفي ذلك آية عظيمة جديرة بالتدبر والاتعاظ.

إيناس المريض بالأمل

من الحكمة واللياقة بعث الأمل في نفس المريض، حتى وهو في أصعب حالات الوجع، فسعد بن أبي وقاص الباكي وهو يظن أنه يحتضر للموت، عمل الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الانتقال به إلى حالة من الأمل بالشفاء والبقاء، فقال له:(لَنْ تُخَلَّفَ بَعْدِي فَتَعْمَلَ عَمَلًا تُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، إلا ازْدَدْتَ بِهِ رفعه وَدَرَجَةً) مردفاً: (ولعلك أَنْ تُخَلَّفَ بَعْدِي، حتى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ...)

فبعث في نفس سعد الأمل بالبقاء، إلى ما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وهذا ما كان حقيقة، فسعد عاش، وأنجب بعد ذلك أبناء، بدليل الرواية أعلاه، أن ثلاثة من أبنائه يحدثون عن حالته التي تتناولها الرواية، مع أنه كان وقتها ليس له سوى ابنة، فعاش وأنجب أبناء انتفعوا من ماله، إضافة إلى انتفاع المسلمين من حياته التي قادهم خلالها إلى انتصارات أشهرها القادسية، وبالطبع تضرر منه أعداء الإسلام الذين هزموا على يده.

---

* يونس:90.

"كورونا" بين الغفلة والمبالغة:

بعض الناس ينتقدون منحى التطرق للحديث الديني في مثل ظرف "كورونا"، وبعضهم يبالغ في تحميل الأمور ما لا تحتمل، ويقحمون الدين ونصوصه في مجالات بحثية أو علمية أو طبية دون مراعاة لحدود المصداقية والمنطقية في الاستدلال، وبغض النظر عن مواقف هؤلاء وأولئك، تبقى مشروعية التذكير بقضايا الدين الواضحة ذات الصلة بشكل أو بآخر بما يجري على أرض الواقع قائمة.

فلا ملجأ من الله إلا إليه، حقيقة إيمانية، مسندة بالدليل النصي والواقعي، أما النصي، فمن أدلته خبر فرعون آنف الذكر، وواقعياً أن تلمس الشفاء ورجاء النجاة يشاهد من الناس وهم يواجهون المحن العصيبة، ففي ساعات الحقيقة تنجلي الغيوم عن العيون والقلوب، فيُعبر المبتلون عن إيمان بأن منشأ الأمور واستمرارها وتغيرها، يكون دائماً بيد الله، صاحب الملك والملكوت، والعظمة والجبروت، من إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، وهو الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، وجعل له السمع والبصر والفؤاد والعظام، وكسا العظام لحماً، وإذا مرض فهو يشفيه، وهو يميته ويحييه، وهو يحيي العظام وهي رميم.

وفراق الحياة الدنيا إلى الآخرة، من أمور الغيب، الذي اختص الله بعلمه وتقديره وتصريفه، فكم من الناس ماتوا دون مقدمات من الأمراض والأوجاع، وكم في المقابل من كتب لهم الشفاء بعد أن ظنوا ومن حولهم أنهم قاب قوسين أو أدنى إلى الفراق الحتمي، فالعبرة أولاً وأخيراً بالأقدار المقدرة، ولكل مخلوق نهاية، طال عمره أو قصر، والكيس من يعمل لما بعد الموت، دون أن ينسى نصيبه من الدنيا.

وصلى الله وسلم، على النبي محمد، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

تزوج عائشة، رضي الله عنها، في شوال

عـن عُـرْوَةَ، عـن عَائِشَـةَ، قالـت: (تَزَوَّجَـنِي رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فِي شَـوَّالٍ، وَبَـنَى بِي فِي شَـوَّالٍ، فَـأَيُّ نِسَـاءِ رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، كان أَحْظَـى عِنْـدَهُ مـني؟! قـال: وَكَانَـتْ عَائِشَـةُ تَسْـتَحِبُّ أَنْ تُدْخِـلَ نِسَـاءَهَا فِي شَـوَّالٍ)[*]

أدرج مسلم هـذا الحديـث الشريـف في صحيحـه، تحـت بَـاب: اسْـتِحْبَابِ الـتَّزَوُّجِ وَالتَّزْوِيـجِ فِي شَـوَّالٍ، وَاسْـتِحْبَابِ الدُّخُـولِ فيـه، ومـا خلـص إليـه الإمـام مسـلم مـن فهـم عـبر عنـه بهـذا العنـوان لهـذا البـاب، ينسـجم مـع مـا يفهـم مـن تعبـير عائشـة، رضي اللـه عنهـا، عـن مؤازرتهـا للـزواج في شـهر شـوال، بعـد أن برهنـت عـلى مشروعيتـه مـن خـلال ذكرهـا لتباهيهـا بتاريـخ زواجهـا مـن النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وبنائـه بهـا، حيـث تـم الأمـران في شـهر شـوال، داحضـة بذلـك مـا يكـون مـن بعـض النـاس قديمـا وحديثـاً، فبينـت أنـه بالرغـم مـن زواجهـا في شـوال، فقـد كانـت لهـا حظـوة مميزة عنـد زوجهـا النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، ممـا يعـني نفـي مـا يعتقـده بعـض الجاهلـين مـن تأثـر الـزواج سـلباً بسـبب الـزواج في شـوال، حيـث يتخـوف بعـض المخطئـين مـن اسـم شـوال، وبعضهـم يعتقـد دون دليـل ولا برهـان أن الـزواج بـين العيديـن؛ الفطـر والأضحـى يكـون مهـدداً بالفشـل، ولا تعـدو هـذه المعتقـدات عـن كونهـا خرافـات وخزعبـلات، الديـن منهـا بـراء، والواقـع يكذبهـا، وفشـل الـزواج أو نجاحـه لا يعـود لزمـن إجرائـه، وإنمـا لأسـباب أخـرى، يمكـن أن تحـدث في أي أشـهر العـام وأيامـه.

---

*صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب التزوج والتزويج في شوال، واستحباب الدخول فيه.

يقول النووي عند هذا الحديث: فيه استحباب التزويج والتزوج والدخول في شوال، وقصدت عائشة بهذا الكلام رد ما كانت الجاهلية عليه، وما يتخيله بعض العوام اليوم، من كراهة التزوج والتزويج والدخول في شوال، وهذا باطل، لا أصل له، وهو من آثار الجاهلية، كانوا يتطيرون بذلك، لما في اسم شوال من الإشالة والرفع.[1]

معنى العدوى والطيرة والهامة والصفر:

مساندة لنفي التشاؤم الذي دحضته عائشة، رضي الله عنها، بشأن الزواج في شوال، فقد نفى صلى الله عليه وسلم، أموراً عامة في سياق تصويب مفاهيم الناس ومعتقداتهم، ليبعد عنهم الأوهام والخرافات، فرسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول:(لَا عَدْوَى، ولا طِيَرَةَ، ولا هَامَةَ، ولا صَفَرَ، وَفِرَّ من الْمَجْذُومِ كما تَفِرُّ من الأَسَدِ)[2]

يقول العيني في شرحه لهذا الحديث الشريف: أن (العدوى) اسم من الإعداء، يقال: أعداه الداء، يعديه إعداء، وهو أن يصيبه مثل ما يصاحب الداء، وكانوا يظنون أن المرض بنفسه يعدي، فأعلمهم النبي، صلى الله عليه وسلم، أن الأمر ليس كذلك، وإنما الله عز وجل، هو الذي يمرض، وينزل الداء، ولهذا قال: فمن أعدى الأول؟ أي من أين صار فيه الجرب؟ وقوله: (ولا طيرة) بكسر الطاء، وفتح الياء، وقد تسكن، هي التشاؤم بالشيء، وهو مصدر تطير، يقال: تطير طيرة، وتحير حيرة، وأصله فيما يقال التطير بالسوانح والبوارح، من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع وأبطله، ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع، أو دفع ضر.

وقوله: (ولا هامة) الهامة الرأس، واسم طائر، وهو المراد في الحديث، وذلك أنهم كانوا يتشاءمون بها، وهي من طير الليل، وقيل: هي البومة، وقيل: كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لا يدرك بثأره يصير هامة، فيقول: اسقوني اسقوني، فإذا أدرك بثأره طارت،

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 9/ 209.
2. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الجذام.

وقيل: كانوا يزعمون أن عظام الميت، وقيل: روحه، تصير هامة، فتطير، ويسمونه الصدى، فنفاه الإسلام، ونهاهم عنه. وقوله: (ولا صفر) كانت العرب تزعم أن في البطن حية، يقال لها الصفر، تصيب الإنسان إذا جاع، وتؤذيه، وإنها تعدي، فأبطل الإسلام ذلك، وقيل: أراد به النسيء الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، وهو تأخير المحرم إلى صفر، ويجعلون صفر هو الشهر الحرام، فأبطله الإسلام، وقوله: (فر) من فر يفر، وقوله: (كما تفر من الأسد) كلمة ما مصدرية؛ أي كفرارك من الأسد.[1]

الفأل الصالح:

بالتزامن مع دحض التشاؤم المبني على الأوهام والخرافة، هناك إقرار بوجود الفأل الصالح، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (لَا طِيَرَةَ، وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ، قال: وما الْفَأْلُ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أحدكم)[2]

يقول صاحب مرقاة المفاتيح: وما أحسن هذا المقال؛ حيث نفى الطيرة بعمومها، واختار فرداً خاصاً من أحد نوعيها، وهي الكلمة الطيبة.[3]

مما سبق بيانه يظهر حرص الإسلام على نفي الأوهام والخرافات التي تقوم على خطأ في المعتقد والتصور، ويعطل مسار حياة الأفراد والجماعات بسبب التشاؤم من أمور، دون استناد إلى دليل شرعي أو حقيقة واقعية، والزواج في شوال تطبيق عملي على درب دحض التشاؤم القائم على تخيلات ومعتقدات مصدرها الجهل والوهم، والتقاليد التي ليس لها من الله سلطان، عسى أن يحفز الوقوف عند هذا الموضوع والتذكير به، على تحري الحقيقة اللازمة لاتخاذ المواقف الواضحة من مثل هذه المسائل، حسب توجيهات رب العالمين، وخاتم النبيين، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. عمدة القاري:21/ 247.
2. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الفأل.
3. مرقاة المفاتيح:8/ 392.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يعزز التكافل بين الناس في العيد

عـن سَـلَمَةَ بـن الْأَكْـوَعِ، قـال: قـال النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (مـن ضَحَّـى مِنْكُـمْ، فـلا يُصْبِحَـنَّ بَعْـدَ ثَالِثَـةٍ وبقـي في بَيْتِـهِ منـه شَيْءٌ، فلمـا كان العَـامُ المُقْبِـلُ، قالـوا: يـا رَسُـولَ اللَّـهِ، نَفْعَـلُ كما فَعَلْنَـا عَـامَ المَـاضِي؟ قـال: كُلُـوا وَأَطْعِمُـوا وَادَّخِـرُوا، فـإن ذلـك العَـامَ كان بِالنَّـاسِ جَهْـدٌ، فَـأَرَدْتُ أَنْ تُعِينُـوا فيهـا)[*]

عـني الإسـلام بتحقيـق التكافـل الاجتماعـي في المجتمـع المسـلم، وهـو يتجـلى هنـا بحـثّ أبنـاء المجتمـع الواحـد عـلى سـد حاجـات بعضهـم بعضـاً، ودفـع الـشر عـن بعضهـم بعضـاً كذلـك، فينـبري القـادر إلى مسـاعدة المحتـاج، والغـني يـؤازر الفقـير، ويحمـي القـوي الضعيـف، وينـصره بالحـق، وحـين يكـون ذلـك فيهـم، يلمـس عنـاصر المجتمـع التكامـل والتضافـر، فـلا يبيـت فيـه جائـع، ولا يعـاني مكلـوم إلا وجـد مـن يضمـد جراحـه، ويلـبي حاجاتـه.

وفي الإسـلام مـن الشرائـع والأحـكام والقيـم الـتي تعـزز التكافـل الاجتماعـي وتدعمـه، في جوانـب الحيـاة، ومجالاتهـا كافـة، فالـزكاة والصدقـات الواجبـة والتطوعيـة، وحـتى كفـارات الأيمـان وبعـض الأخطـاء تصـب في معـين خدمـة الفقـراء والمحتاجـين، ونظـام النفقـات، ومشـاريع صلـة الأرحـام في المناسـبات الدينيـة الموسـمية وغيرهـا، تشـهد بجـلاء ووضـوح عـلى مـدى عنايـة الإسـلام بالتكافـل الاجتماعـي، ليكـون المسـلمون في المحصلـة كمـا يريـد لهـم دينهـم، كالجسـد الواحـد، إذا اشْـتَكَى منـه عُضْـوٌ، تَدَاعَـى لـه سَـائِرُ الْجَسَـدِ بِالسَّـهَرِ وَالْحُمَّـى.

* صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها.

التكافل المتمثل بالإطعام من الأضاحي:

من مجالات تعزيز روح التكافل بين الناس في العيد، الإطعام من لحوم الأضاحي، التي يتقرب المسلمون بها لربهم الذي لا يرقب سبحانه منها لحماً ولا دماء، فحاشا لله أن تلزمه، أو أن ينتظر الانتفاع بها لنفسه، مصداقاً لقوله عز وجل: {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ}[1]

وفي حديث سلمة الأكوع، المثبت نصه آنفاً في صدر هذا المقال، إشارة واضحة لحرص الإسلام على مساعدة الناس بلحوم الأضاحي، حتى إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، منع في عام واجهت الناس فيه جائحة من ادخار لحوم الأضاحي لأكثر من ثلاثة أيام، معللاً هذا المنع بِأنه كان بالنَّاسِ جَهْدٌ، فَأَرَاد أَنْ يعِينُوا فيها، جاء في فتح الباري، أن قوله: (كان بالنَّاسِ جَهْدٌ) بالفتح؛ أي مشقة من جَهد قحط السَنة.

وقوله: (فَأَرَدْتُ أَنْ تُعِينُوا فيها) من الإعانة، قال عياض: الضمير في تعينوا فيها للمشقة، المفهومة من الجَهد، أو من الشدة، أو من السنة، لأنها سبب الجَهد.[2]

حكم ادخار لحوم الأضاحي:

يظهر مما سبق أن التكافل جُعِل هدفاً يتحقق عبر توزيع الأضاحي، وما كان النهي عن ادخار الأضحية لأكثر من ثلاثة أيام إلا عارضاً، وإلا فالأصل أن يتقيد ذبحها أو نحرها بأيام العيد، لكن أكلها وتوزيعها يمكن أن يمتد لما بعد ذلك، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (الضَّحِيَّةُ كنا نُمَلِّحُ منه، فَنَقْدَمُ بِهِ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، بِالْمَدِينَةِ، فقال: لَا تَأْكُلُوا إلا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَلَيْسَتْ بِعَزِيمَةٍ، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُطْعِمَ منه، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)[3]، فهذه رواية مؤكدة

1. الحج: 37.
2. فتح الباري، 10 /26.
3. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها.

للحديث آنف الذكر، من أن ادخار لحوم الهدي والأضاحي في الأصل مباح، لكن لعارض جَهد الناس قيد بثلاثة أيام، عوناً لهم، وعن عبد الرحمن بن عَابِسٍ، عن أبيه، قال: (قلت لِعَائِشَةَ: أَنَهَى النبي، صلى الله عليه وسلم، أَنْ تُؤْكَلَ لُحُومُ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ؟ قالت: ما فَعَلَهُ إلا في عَامٍ جَاعَ الناس فيه، فَأَرَادَ أَنْ يُطْعِمَ الْغَنِيُّ الْفَقِيرَ، وَإِنْ كنا لَنَرْفَعُ الْكُرَاعَ فَنَأْكُلُهُ بَعْدَ خَمْسَ عَشْرَةَ، قِيلَ: ما اضْطَرَّكُمْ إليه؟ فَضَحِكَتْ، قالت: ما شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ، صلى الله عليه وسلم، من خُبْزِ بُرٍّ مَأْدُومٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، حتى لَحِقَ بِاللَّهِ)[1]

وقد اختلف العلماء في حكم ادخار الأضاحي، فذهب قوم إلى تحريم ادخارها بعد ثلاث، منهم جماعة من الظاهرية، واحتجوا بالنهي عن ادخارها لما فوق ثلاث، وخالفهم في ذلك جماهير العلماء، وفقهاء الأمصار، منهم الأئمة الأربعة، وأصحابهم، فلم يروا بأكلها وادخارها بأساً، واحتجوا بالحديث المذكور آنفاً، وبأحاديث أُخر.[2]

قال ابن المنير: وجه قولهم: هل نفعل كما كنا نفعل؟ مع أن النهي يقتضي الاستمرار؟ لأنهم فهموا أن ذلك النهي ورد على سبب خاص، فلما احتمل عندهم عموم النهي، أو خصوصه من أجل السبب، سألوا، فأرشدهم إلى أنه خاص بذلك العام؛ من أجل السبب المذكور.[3]

تجنب ادّخار لحوم الأضاحي لهذا العام 1441هـ:

إعانة الفقراء هدف، استخدمت وسيلة النهي عن ادخار الأضاحي وقت الجهد لتحقيقه، وفي هذا العام الذي يواجه فيه الناس جَهداً عظيماً بسبب تداعيات جائحة الكورونا وآثارها الاقتصادية الصعبة، فالأولى بالذين سيضحون هذا العام أن يأخذوا بسنته صلى الله عليه وسلم، التي سنها حين كان بالناس جَهد وبلاء، فمنعهم من ادّخار لحوم الأضاحي فوق ثلاثة أيام.

1.صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب ما كان السلف يدخرون في بيوتهم وأسفارهم....

2. عمدة القاري، 21 /159.

3. فتح الباري، 10/ 26.

تضمين الحث على التصدق في مواعظ العيد:

العيد مناسبة للابتهاج والسرور، والذكر والتهليل، وأداء الشعائر، ومما يلفت النظر فيه، من سيرة خير الأنام، صلى الله عليه وسلم، عنايته بالحث على الصدقات خلال مواعظ العيد، فعن ابن عَبَّاسٍ، قال: (خَرَجْتُ مع النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم فِطْرٍ أو أَضْحَى، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ، ثُمَّ أتى النِّسَاءَ، فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ، وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ)(*)

فالصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، والذي ينفق ماله احتساباً لوجه الكريم سبحانه، يتمتع بمقامه الرفيع، مع السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وأي متدبر يدرك أثر الصدقة على تسهيل حياة المعوزين، الذين يحبون مقدمي العون لهم، ويرجون لهم تحصيل المزيد من الخيرات والنماء لأموالهم، ما دامت حقوقهم منها مضمونة، وتصل إليهم باحترام، فليس عجيباً والحال هكذا أن يُعنى صلوات الله وسلامه عليه، بأمر النساء بالصدقة، وهو يعظهن عقب صلاة العيد، ليكن لهن مثل كرام الرجال الفضل والأجر والإحسان، والإسهام في تحقيق التكافل في مجتمعهن، عملاً بأحكام دينهن، وقيمه التي أنزلها رب البرية سبحانه، على نبيه الحبيب، محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

*صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب خروج الصبيان إلى المصلى.

يوازن بين حق الدائن وظروف المدين

عـن أبي سَـعِيدٍ الْخُـدْرِيِّ، قال:(أُصِيـبَ رَجُـلٌ فِي عَهْـدِ رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فِي ثِمَـارٍ ابْتَاعَهَـا، فَكَـثُرَ دَيْنُـهُ، فقـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: تَصَدَّقُـوا عليـه، فَتَصَـدَّقَ النـاس عليـه، فلـم يَبْلُـغْ ذلـك وَفَـاءَ دَيْنِـهِ، فقـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، لِغُرَمَائِـهِ: خُـذُوا مـا وَجَدْتُـمْ، وَلَيْـسَ لَكُـمْ إلا ذلـك)[1]

يعـاني كثـير مـن النـاس في هـذه الأيـام ومـا شـابهها مـن ضيـق ذات اليـد، والتعـثر في الوفـاء بالالتزامـات الماليـة، ومـن أبرزهـا قضـاء الديـون، والرسـول، صـلى اللـه عليه وسـلم، في حديـث أبي سـعيد الخـدري أعـلاه يحـث عـلى مراعـاة ظـروف المدينـين، مبينـاً أن ليـس للدائنـين عـلى المدينـين سـوى مـا يجـدون لديهـم مـن مـال، يسـتردون منـه حقوقهـم، فـإذا فاقـت مبالـغ الديـون عـلى مـا لـدى المدينـين، ففـي هـذه الحالـة يُكتفـى باسـترداد المتوافـر، ليـس إلا، جـاء في مرقـاة المفاتيـح: أن المعـنى ليـس لكـم إلا أخـذ مـا وجدتـم، والإمهـال بمطالبـة البـاقي إلى الميـسرة، وقـال المظهـر: أي ليـس لكـم زجـره وحبسـه؛ لأنـه ظهـر إفلاسـه، وإذا ثبت إفـلاس الرجـل لا يجـوز حبسـه بالديـن، بـل يخـلى، ويمهـل إلى أن يحصـل لـه مـال، فيأخـذه الغرمـاء، وليـس معنـاه أنـه ليـس لكـم إلا مـا وجدتـم، وبطـل مـا بقـي مـن ديونكـم.[2]

ويذكـر ابـن حجـر: أن الجمهـور ذهبـوا إلى أن مـن ظهـر فلسـه فعـلى الحاكـم الحجـر عليـه في مالـه، حـتى يبيعـه عليـه، ويقسـمه بـين غرمائـه عـلى نسـبة ديونهـم.[3]

1. صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين.
2. مرقاة المفاتيح:6/ 103.
3. فتح الباري:5/ 66.

جزاء إمهال المعسر والعفو عنه:

حديث أبي سعيد آنف الذكر يتوافق مع الحث القرآني على إمهال المعسرين، حيث يقول عز وجل: {وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}[1]

فعند تعسر أحوال المدينين يُنظَرون، وقد تضافرت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة في بيان فضل إمهال المعسر، والتجاوز عنه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال:(كان تَاجِرٌ يُدَايِنُ الناس، فإذا رَأَى مُعْسِرًا، قال لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عنه، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ الله عنه)[2]

وفي رواية عن حُذَيْفَة قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (تَلَقَّت الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كان قَبْلَكُمْ، فَقَالُوا: أَعَمِلْتَ من الْخَيْرِ شيئاً؟ قال: لَا، قالوا: تَذَكَّرْ، قال: كنت أُدَايِنُ الناس، فَآمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الْمُعْسِرَ، وَيَتَجَوَّزُوا عن الْمُوسِرِ، قال: قال الله عز وجل: تَجَوَّزُوا عنه)[3]

جاء في صحيح مسلم بشرح النووي، أن قوله: (فتياني) معناه غلماني، كما صرح به في الرواية الأخرى، والتجاوز والتجوز معناهما المسامحة في الاقتضاء والاستيفاء، وقبول ما فيه نقص يسير، وفي هذه الأحاديث فضل إنظار المعسر، والوضع عنه، إما كل الدين، وإما بعضه، من كثير أو قليل، وفضل المسامحة في الاقتضاء، وفي الاستيفاء، سواء استوفى من موسر أو معسر، وفضل الوضع من الدين، وأنه لا يحتقر شيء من أفعال الخير، فلعله سبب السعادة والرحمة.[4]

---

1. البقرة:280.
2. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب من أنظر معسراً.
3. صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر.
4. صحيح مسلم بشرح النووي:10/ 224.

مطل الغني ظلم:

تمتاز الأحكام الشرعية بمراعاة التوازن بين الحاجات والضوابط، فتقر بالدوافع الفطرية والحقوق الفردية والعامة، لكنها تضع من الضوابط التي تراعى بها الظروف والأحوال، وفي مسألة الديون توازن الأحكام الشرعية بين حق الدائن باسترداد ماله، وبين قدرة المدين على الوفاء بالتزاماته تجاه الدائن، ففي مقابل حث الدائن على إمهال المدين، والعفو عنه، حين يكون معسراً، فإن المدين ملزم ببذل الجهد لسداد الديون المستحقة عليه، ورد الحقوق لأصحابها دون مماطلة ولا تسويف، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، فإذا أُتْبِعَ أحدكم على مَلِيٍّ فَلْيَتْبَعْ)[1]

جاء في عمدة القاري أن المطل في الأصل من قولهم مطلت الحديدة أمطلها، إذا مددتها لتطول، وقال القرطبي: المطل عدم قضاء ما استحق أداؤه، مع التمكن منه، أي أنه يحرم على الغني القادر أن يمطل بالدين بعد استحقاقه، بخلاف العاجز، ويجب وفاء الدين، ولو كان مستحقه غنياً، ولا يكون غناه سبباً في تأخيره حقه عنه.[2]

لصاحب الحق مقال:

إلى جانب بيان إثم المماطل الذي يملك مالاً يقضي به ديونه، ويتخلف عن ذلك دون مبرر مشروع، فإن الإسلام أعذر الدائن في مطالبته بدينه، فذلك حق له، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، رَجُلٌ يَتَقَاضَاهُ، فَأَغْلَظَ له، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فقال: دَعُوهُ؛ فإن لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا)[3]

1.صحيح البخاري، كتاب الحوالات، باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة؟

2. عمدة القاري:12/ 110، بتصرف.

3. صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب لصاحب الحق مقال.

يعني لصاحب الحق صولة الطلب، وقوة الحجة، على من يمطل أو يسيء المعاملة، وأما من أنصف من نفسه، فبذل ما عنده، واعتذر عما ليس عنده، فلا تجوز الاستطالة عليه بحال.[1]

فالمطالبة بالديون المستحقة حق مشروع للدائنين، لكن ينبغي أن تكون تحت مظلة الإمهال والإنظار للمعسرين، والرفق بهم، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى)[2]

وبهذا يظهر بوضوح التوازن بين الحث على العفو عن المعسرين، أو إمهالهم إلى حين ميسرة، وبين ضمان حق الدائنين في استرداد أموالهم من المدينين الميسورين، وذلك كما تظهر أحاديث الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1. عمدة القاري:12/ 136.

2. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف.

الفصل الثالث / تفسير

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة الأولى	63
.2	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة الثانية	67
.3	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة الثالثة	71
.4	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة الرابعة	74
.5	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة الخامسة	78
.6	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة السادسة	82
.7	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة السابعة	86
.8	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة الثامنة والأخيرة	90

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

وصِفات قرآنية لأتباعه

الحلقة الأولى

يقـول اللـه تعـالى: {مُّحَمَّـدٌ رَّسُـولُ اللَّـهِ وَالَّذِيـنَ مَعَـهُ أَشِـدَّاء عَـلَى الْكُفَّـارِ رُحَمَـاء بَيْنَهُـمْ تَرَاهُـمْ رُكَّعـاً سُـجَّداً يَبْتَغُـونَ فَضْـلاً مِّـنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانـاً سِـيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِـم مِّـنْ أَثَـرِ السُّـجُودِ ذَلِـكَ مَثَلُهُـمْ فِي التَّـوْرَاةِ وَمَثَلُهُـمْ فِي الْإِنجِيـلِ كَـزَرْعٍ أَخْـرَجَ شَـطْأَهُ فَـآزَرَهُ فَاسْـتَغْلَظَ فَاسْـتَوَى عَـلَى سُـوقِهِ يُعْجِـبُ الـزُّرَّاعَ لِيَغِيـظَ بِهِـمُ الْكُفَّـارَ وَعَـدَ اللَّـهُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ مِنْهُـم مَّغْفِـرَةً وَأَجْـراً عَظِيمـاً}[1]

تسـطر هـذه الآيـة القرآنيـة مـن سـورة الفتـح، وصفـاً دقيقـاً متميزاً للرسـول محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، والذيـن معـه، لتكـون نبراسـاً دائمـاً للمؤمنـين برسـالة الإسـلام، إلى أن يـرث اللـه الأرض ومـن عليهـا، ولتكـون كذلـك معيـاراً للثلـة المؤمنـة في كل مـكان وحـين، يشـخصون بالاسـتناد إليهـا حالـة المؤمنـين في الظـروف كلهـا، مـن حيـث الصـواب والخطـأ، والاسـتقامة والانحـراف، فالآيـة الكريمـة أجملـت معايـير تشـخيص حـال أفـراد المؤمنـين وجماعتهـم، في سـلمهم وحربهـم، وقوتهـم وضعفهـم، وعلاقتهـم مـع ربهـم، ومـع ذواتهـم، و مـع بعضهـم بعضـاً، ومـع الآخريـن.

معية الأنبياء:

كـرر القـرآن الكريـم التعبـير عـن المعيـة المطلقـة مـع الأنبيـاء، {وَالَّذِيـنَ مَعَـهُ}، في أربعـة مواضـع، أحدهـا يمثلـه نـص الآيـة الكريمـة مـن سـورة الفتـح المثبتـة أعـلاه، والمقصـود بهـا أتبـاع النـبي محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، أمـا الثلاثـة مواضـع الأخـرى، فـكان الحديـث فيهـا عـن أتبـاع أنبيـاء اللـه: نـوح وهـود وإبراهيـم، فعـن أتبـاع نـوح، عليـه السـلام، يقـول تعـالى: {فَكَذَّبُـوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِيـنَ مَعَـهُ فِي الْفُلْـكِ...}[2]

1. الفتح: 29.
2. الأعراف:64.

وعن أتباع هود، عليه السلام، يقول تعالى: {فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا...}[1]

وعن أتباع إبراهيم، عليه السلام، يقول تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...}[2]

والمعية هنا تعني المرافقة والمصاحبة، واتباع النهج، والتأسي بالسيرة والعمل، وبالتأكيد أن الحكم عليها، والموقف الشرعي منها، يختلف باختلاف نهجها، وخصائصها.

معية مقترنة بوصف الإيمان:

ورد ذكر معية الأتباع مقترنة بوصف الإيمان، في ثمانية مواضع قرآنية، وذلك على النحو الآتي:

*معية الذين آمنوا بالنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ذكرت في ثلاث آيات قرآنية، وذلك في سور البقرة والتوبة والتحريم، فقال تعالى: {...حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}[3]

وقال تعالى:{لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ...}[4]

وقال تعالى:{...يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ...}[5]

*معية الذين آمنوا بطالوت، وهو ملك أعطاه الله ملك بني إسرائيل، وفيها يقول تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ...}[6]

*معية الذين آمنوا بنبي الله هود، عليه السلام، ذكرت في قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ...}[7]

---

1. الأعراف:72.
2. الممتحنة:4.
3. البقرة:214.
4. التوبة:88
5. التحريم:8
6. البقرة:249.
7. هود: 58.

*معيـة الذيـن آمنـوا بصالـح، عليـه السـلام، ذكـرت في قولـه تعـالى: {فَلَمَّـا جَـاء أَمْرُنَـا نَجَّيْنَـا صَالِحـاً وَالَّذِيـنَ آمَنُواْ مَعَـهُ...}[1]

*معيـة الذيـن آمنـوا بشـعيب، عليـه السـلام، ذكـرت في قولـه تعـالى: {وَلَمَّـا جَـاء أَمْرُنَـا نَجَّيْنَـا شُـعَيْباً وَالَّذِيـنَ آمَنُـواْ مَعَـهُ ...}[2]

*معيـة الذيـن آمنـوا بمـوسى، عليـه السـلام، ذكـرت في قولـه تعـالى: {فَلَمَّـا جَاءهُـم بِالْحَـقِّ مِـنْ عِندِنَـا قَالُـوا اقْتُلُـوا أَبْنَـاء الَّذِيـنَ آمَنُـوا مَعَـهُ وَاسْـتَحْيُوا نِسَـاءهُمْ ...}[3]

والمتدبـر في هـذه الآيـات الكريمـة يلحـظ أن المعيـة الصالحـة والنجـاة تجلبـان الرحمـة، بخـلاف المعيـة الضالـة المضلـة، فنهايتهـا وخيمـة، وعاقبتهـا عسـيرة.

معية المسلمين:

يتبـين ممـا سـبق أن معيـة المسـلمين لنبيهـم محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، تكـرر ذكرهـا بهـذا المعـنى، وفي السـياق اللفظـي المعـبر عنـه، في مواضـع قرآنيـة عـدة، منهـا مـا كان مطلقـاً، ومنهـا مـا اقـترن بوصـف الإيمـان، وقـد تبـين كذلـك أن المعيـة لـم تقتـصر عـلى المسـلمين تجـاه نبيهـم، عليـه الصـلاة والسـلام، بـل كانـت مـن السـالفين مـع أنبيائهـم وصالـح ملوكهـم، وقـد أثـنى الإسـلام في ثنايـا نصوصـه الشرعيـة، ومبادئـه وأحكامـه، عـلى المعيـة المبـصرة الواعيـة، وذم تلـك المنطلقـة مـن التقليـد الأعمـى، الـتي يُعطـل خلالهـا عمـل العقـول، ويُغـشى فيهـا عـلى العيـون، وتُصـم فيهـا الآذان، وممـا نـزل مـن الآيـات القرآنيـة بالخصـوص، مـا جـاء في سـياق الإخبـار عـن حـوار العقـل والمنطـق الـذي تبنـاه إبراهيـم، عليـه السـلام، مـع قومـه الذيـن تظللـوا بالتبعيـة لمـا وجـدوا عليـه قومهـم، فقـال تعـالى: {قَالُـوا نَعْبُـدُ أَصْنَامـاً فَنَظَـلُّ لَهَـا عَاكِفِـينَ* قَـالَ هَـلْ يَسْـمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُـونَ* أَوْ يَنفَعُونَكُـمْ أَوْ يَـضُرُّونَ* قَالُـوا بَـلْ وَجَدْنَـا آبَاءنَـا كَذَلِـكَ يَفْعَلُـونَ* قَـالَ أَفَرَأَيْتُـم مَّـا كُنتُـمْ تَعْبُـدُونَ* أَنتُـمْ وَآبَاؤُكُـمُ الْأَقْدَمُـونَ* فَإِنَّهُـمْ عَـدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِـينَ}[4].

1. هود: 66.
2. هود: 94.
3. غافر: 25.
4. الشعراء: 71 - 77.

ومن عاقبة التبعية العمياء، أن المتبوعين يتبرأون يوم القيامة من تابعيهم، فقال عز وجل: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ}[1]

وقد استُثنيت المعية الصالحة من الذم، فقال تعالى:{الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ}[2]، بل جاء الأمر الصريح باتباع النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[3]

وعن ندم المتخلي عن الاتباع الصالح الواعي، يقول جل شأنه: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً}[4]

ومن شعر الحكمة في بيان أهمية حسن المصاحبة، واختيار الرفاق:

عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ * * * فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

إِذَا كُنْت فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ * * * وَلَا تَصْحَبْ الْأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

راجين الله أن ييسر لاحقاً، متابعة التأمل في الصفات القرآنية للمسلمين، حسب الوصف القرآني الوارد في الآية (29) من سورة الفتح آنفة الذكر، والتي أولها معيتهم المشرفة لنبيهم، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. البقرة:166.
2. الزخرف:67.
3. آل عمران:31.
4. الفرقان:27.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

وصِفات قرآنية لأتباعه

الحلقة الثانية

يقول الله تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ ...}[*]

وقفت الحلقة السابقة عند الصفة الأولى من صفات أتباع النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، حسب المتضمن في الآية القرآنية من سورة الفتح المثبت جزء منها أعلاه، حيث تم التأمل بصفة المعية، {وَالَّذِينَ مَعَهُ}، وتم عرض آيات قرآنية ورد فيها ذكر المعية مطلقة، وأخرى ذكرت فيها مقترنة بالإيمان، ثم تم التعريج على معية المسلمين لنبيهم، عليه أفضل الصلاة، وأتم التسليم، مع التنبيه المجمل لأهمية الصحبة الصالحة، وضرر الاتباع الأعمى وصحبة الضلال، ووفاء بالوعد نتابع التأمل بصفات المسلمين الواردة في الآية المشار إليها أعلاه.

أشداء على الكفار

دين الإسلام الذي جاء به النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، عن ربه، هدى للعالمين، واجهته منذ بدأ حملة مضادة من الذين كفروا، وتفاوتت مستويات هذه الحملة المعادية بين الإنكار والسخرية ونصب المكائد تلو المكائد، والتأليب ضده، إلى درجة حمل السلاح ضده، ومحاولة اقتلاعه وأتباعه من الوجود، وإزاء ذلك كان لا بد من مواجهة موازية يتعاون فيها المسلمون أفراداً وجماعات على صد العدوان ضدهم، ومنع الشر من أن يقضي على وجودهم، أو يعطل دعوتهم للخير التي كلفوا بحملها،

* الفتح:29.

وتبليغها للعالمين، وحسب الوصف القرآني لخصائص محمد، عليه الصلاة والسلام، والذين معه، فإنهم:{أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ...} أي لا تأخذهم في الله لومة لائم، ينافحون عن دينه، ولو كان الثمن تقديم أرواحهم قرابين لدينهم والذب عنه، يقول الزمخشري: المؤمنون كانوا يجاهدون لوجه الله، لا يخافون لومة لائم قط، وإنهم صلاب في دينهم، إذا شرعوا في أمر من أمور الدين، بإنكار منكر، أو أمر بمعروف، مضوا فيه كالمسامير المحماة، لا يرعبهم قول قائل، ولا اعتراض معترض، ولا لومة لائم، يشق عليه جدهم في إنكارهم، وصلابتهم في أمرهم.[1]

أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ:

من موافقات شدة المؤمنين على الكافرين، عزتهم عليهم، وفيها يقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[2]

وتفسير المراد بقوله تعالى:{أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} أي يظهرون الغلظة والترفع على الكافرين، وقيل يعاونهم أي يغالبونهم، من قولهم عزه يعزه إذا غلبه، كأنهم مشدون عليهم بالقهر والغلبة[3]

وقال الطبري: ويعني بقوله: {أعزة على الكافرين} أشداء عليهم، غلظاء بهم، من قول القائل: قد عزني فلان، إذا أظهر العزة من نفسه له، وأبدى له الجفوة والغلظة.[4]

1. الكشاف:1/ 681.
2. المائدة:54.
3. التفسير الكبير:12 /21 - 22.
4. تفسير الطبري:6/ 286.

الغلظة مع الكافرين المعادين:

لـم تقتـصر الآيـات القرآنيـة عـلى وصـف المؤمنـين حـال تعاملهـم مـع الذيـن يعادونهـم مـن الكافريـن، بـل تضمنـت أوامـر صريحـة لهـم بالغلظـة معهـم والقسـوة عليهـم، فالعـين بالعـين والبـادئ أظلـم، وقـد قـال تعـالى: {يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا قَاتِلُـوا الَّذِيـنَ يَلُونَكُـم مِّـنَ الْكُفَّـارِ وَلْيَجِـدُوا فِيكُـمْ غِلْظَـةً وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللّـهَ مَـعَ الْمُتَّقِـينَ}[1]

جـاء في التفسـير الكبـير أن الغلظـة بالكسـر الشـدة العظيمـة، وهـذه الآيـة تـدل عـلى الأمـر بالتغليـظ عليهـم، ونظيره قولـه تعالى:{وَاغْلُـظْ عَلَيْهِـمْ}[2]، وللمفسريـن عبـارات في تفسـير الغلظـة، قيـل: شـجاعة، وقيـل: شـدة، وقيـل: غيظـاً.

والغلظـة ضـد الرقـة، وهـي الشـدة في إحـلال النقمـة، والفائـدة فيهـا أنهـا أقـوى تأثيراً في الزجـر والمنـع عـن القبيـح، ثـم إن الأمـر في هـذا البـاب لا يكـون مطـرداً، بـل قـد يحتـاج تـارة إلى الرفـق واللطـف، وأخـرى إلى العنـف، ولهـذا السـبب قال:{وَلْيَجِـدُوا فِيكُـمْ غِلْظَـةً} تنبيهـاً عـلى أنـه لا يجـوز الاقتصـار عـلى الغلظـة البتـة، فإنـه ينفـر، ويوجـب تفـرق القـوم، فقوله:{وَلْيَجِـدُوا فِيكُـمْ غِلْظَـةً} يـدل عـلى تقليـل الغلظـة، كأنـه قيـل: لا بـد وأن يكونـوا، بحيـث لـو فتشـوا عـن أخلاقكـم وطبائعكـم لوجـدوا فيكـم غلظـة، وهـذا الـكلام إنمـا يصـح فيمـن أكـثر أحوالـه الرحمـة والرأفـة، ومـع ذلـك فـلا يخلـو عـن نـوع غلظـة.

وهـذه الغلظـة إنمـا تعتـبر فيمـا يتصـل بالدعـوة إلى الديـن، وذلـك إمـا بإقامـة الحجـة والبينـة، وإمـا بالقتـال والجهـاد، فأمـا أن يحصـل هـذا التغليـظ فيمـا يتصـل بالبيـع والـشراء، والمجالسـة والمؤاكلـة فـلا.[3]

---

1. التوبة:123.
2. التوبة: 73.
3. التفسير الكبير:16/ 182 - 183.

يرهبون عدو الله وعدوهم:

من خصائص المؤمنين العاملين بأوامر ربهم، وأحكام دينهم، أنهم يعدون العدة لأعدائهم، ليرهبوهم بها، فقال عز وجل بالخصوص:{وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}(*)

فالمؤمنون متأهبون دائماً لحماية دينهم، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولما تقتضيه المواقف البذل من أرواحهم وأموالهم في سبيل الله، لا يتلكأون، ويلزم لهذا إعداد العدة النفسية والمعنوية والإيمانية والمادية اللازمة لأي مواجهة مع قوى الظلم والكفر والطغيان، وبغير هذا الوجه يفقدون هيبتهم، وتنهب خيراتهم، ويتجرعون كؤوس الذل والصغار، كأساً وراء آخر.

فحال المؤمنين مع أعدائهم يخلو من سبل الخنوع والتذلل ووضع الخاوات، وإنما هم أشداء معهم، لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يقبلون الدنية لأنفسهم ولا لدينهم، ولو اقتضاهم ذلك بذل المهج والأرواح والدماء.

راجين الله أن ييسر لاحقاً، متابعة التأمل في الصفات القرآنية للمسلمين، حسب الوصف القرآني الوارد في الآية أعلاه، والذي يبين أن من خصائصهم أنهم أشداء على الكفار، هم ونبيهم، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

* الأنفال:60.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

وصِفات قرآنية لأتباعه

الحلقة الثالثة

يقـول اللـه تعالى:{مُّحَمَّـدٌ رَّسُـولُ اللَّـهِ وَالَّذِيـنَ مَعَـهُ أَشِـدَّاء عَـلَى الْكُفَّـارِ رُحَمَـاء بَيْنَهُـمْ...}[*] وقفـت الحلقـة السـابقة عنـد الصفـة الثانيـة مـن صفـات النـبي محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، والذيـن معـه، حسـب المتضمـن في الآيـة القرآنيـة مـن سـورة الفتـح المثبـت جـزء منهـا أعـلاه، حيـث تـم التأمـل بصفـة: {أَشِـدَّاء عَـلَى الْكُفَّـارِ} فمحمـد، عليـه الصـلاة والسـلام، والذيـن معـه، ينافحـون عـن دينـه، وقـد أمـروا بالغلظـة مـع الكافريـن المعتديـن، والقسـوة عليهـم، وإعـداد العـدة النفسـية والمعنويـة والإيمانيـة والماديـة اللازمـة لأي مواجهـة مـع قـوى الظلـم والكفـر والطغيـان، مـع التنبيـه إلى أن الأمـر بالشـدة عـلى الكفـار لا يكـون مطـرداً، بـل قـد تحتـاج المواقـف أحيانـاً إلى الرفـق واللطـف.

رحماء بينهم:

التراحـم بـين المسـلمين صفـة جليلـة أثـنى اللـه عليهـم لتحليهـم بهـا، فقلوبهـم في الأصـل رقيقـة تجـاه بعضهـم بعضـاً، يعفـو أحدهـم عـن صاحبـه، إن أسـاء إليـه أو قـصر بحقـه، ومـن ذلـك إعـذاره إن لـم يعـثر عـلى سـبب لخطئـه بحقـه، يحـب أحدهـم لأخيـه مـا يحـب لنفسـه، فيتمـنى لـه الخـير والازدهـار وحفـظ العيـال ونمـاء المـال، قلبـه نقـي مـن أدران الحقـد والكراهيـة والبغضـاء لأخيـه، وقـد تضافـرت التوجيهـات الربانيـة المتضمنـة في آيـات التنزيـل، وأحاديـث خاتـم النبيـين والمرسـلين، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في الحـث عـلى التحـلي بمعـززات تحقيـق خصلـة التراحـم بـين المسـلمين، وإطفـاء نـوازع الكراهيـة مـن قلوبهـم وأوسـاطهم تجـاه بعضهـم بعضـاً، وكل مـا يـؤدي إلى ذلـك، أو يسـاهم فيـه، عـلى شـاكلة النهـي عـن التحاسـد والتناجـش والتباغـض والتدابـر، وأن يبيـع المـرء عـلى بيـع أخيـه،

* الفتح:29.

وتحريم الغيبة والنميمة والغش، والسخرية، والهمز واللمز بالآخرين، وغير ذلك كثير من القيم التي عني الإسلام بترسيخها في قلوب المسلمين وعقولهم وسلوكهم، ليكونوا كما يريد لهم، كالجسد الواحد، حيث يقول رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم:(مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَدَاعَى له سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[1]،وحين يكون المسلمون كذلك، وتكون الرحمة عنواناً لعلاقاتهم، يرفق كبيرهم بصغيرهم، ويساعد غنيهم فقيرهم، ويعود المعافى منهم المريض، وإذا مات أحدهم شيعه الآخرون، واجتهدوا في الدعاء له بالرحمة، وإذا انحرف أحدهم عن جادة الصواب بذلوا أقصى جهدهم لإعادته إليها.

اضطراب بوصلة التراحم:

الناظر في واقع المسلمين اليوم، ولما التقوا بسيوفهم عبر العصور، وسالت دماؤهم بأيدي إخوانهم، يجد قلباً للمعايير قد حدث، وخللاً بالقيم قد انتابهم، فصاروا أعداء بعد أن كانوا إخواناً، كما أراد لهم ربهم، ومن نعي النبي، صلى الله عليه وسلم، على فاقدي الرحمة، رده المفحم على من لم تطاوعه نفسه ليقبل طفلاً من أطفاله، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قَبَّلَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، الْحَسَنَ بن عَلِيٍّ، وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بن حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فقال الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً من الْوَلَدِ، ما قَبَّلْتُ منهم أَحَدًا، فَنَظَرَ إليه رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قال: من لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ)[2]

وفي رواية، عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال له: (أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟!!!)[3]

فإذا كان هذا الاستهجان تجاه المستنكف عن تقبيل صبيانه، فكيف بالذي يتحجر قلبه على إخوانه، فيسكت عن ضيم يصيبهم، أو ظلم يلحقهم، ولا ينتصر لهم، أو تبلغ به الحماقة أن يتآمر على مصالحهم، أو دمائهم، أو اغتصاب حقوقهم، وما يكون لمثل

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.
3. التخريج نفسه

هـذا الـتردي أن يوجـد في أوسـاط المسـلمين، لـو لـم تضطـرب بوصلـة الرحمـة بينهـم؛ لأن اضطرابهـا يقـود للكراهيـة والبغضـاء، والبحـث عـن المصالـح الدونيـة عـلى حسـاب القيـم العليـا، والغايـات السـامية، الـتي تعـزز الوشـائج، وتوثـق العـرى، بـين المسـلمين، فيكونـون يـداً واحـدة عـلى مـن سـواهم، يسـعى بذمتهـم أدناهـم، يستشـعر المـرء منهـم قبـح أن يهـدد أخـاه بسـلاح، ومـن كان هـذا حالـه لـن يطاوعـه قلبـه ليقتـل أخـاه فيـه، والرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يقـول:(إذا الْتَقَى الْمُسْـلِمَانِ بِسَـيْفَيْهِمَا؛ فَالْقَاتِـلُ وَالْمَقْتُـولُ فِي النَّـارِ، فقلت: يـا رَسُـولَ اللَّـهِ، هـذا الْقَاتِـلُ، فما بَـالُ الْمَقْتُـولِ؟! قـال: إنـه كان حَرِيصًـا عـلى قَتْـلِ صَاحِبِـهِ)[1]

أذلة على المؤمنين:

يقابـل التراحـم بـين المسـلمين شـدتهم عـلى الكافريـن، وخفـض الجنـاح منهـم لبعـض، يقابلـه غلظتهـم عـلى أعدائهـم، فاللـه تعـالى أثـنى عـلى المؤمنـين لمـا امتـازوا بـه مـن خصائـص، ذُكـرت بعضهـا في قولـه عـز وجل:{يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ مَـن يَرْتَـدَّ مِنكُـمْ عَـن دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللّـهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُـمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّـةٍ عَـلَى الْمُؤْمِنِـينَ أَعِـزَّةٍ عَـلَى الْكَافِرِيـنَ يُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللّـهِ وَلاَ يَخَافُـونَ لَوْمَـةَ لآئِـمٍ ذَلِـكَ فَضْـلُ اللّـهِ يُؤْتِيـهِ مَـن يَشَـاءُ وَاللّـهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[2]

ويذكـر الـرازي أن أذلـة جمـع ذليـل، وليـس المـراد بكونهـم أذلـة هـو أنهـم مهانـون، بـل المـراد المبالغـة في وصفهـم بالرفـق ولـين الجانـب، فـإن مـن كان ذليـلاً عنـد إنسـان فإنـه ألبتـة لا يظهـر شـيئاً مـن التكـبر والترفـع، بـل لا يظهـر إلا الرفـق واللـين، فكـذا هاهنـا.[3]

راجـين اللـه أن ييـسر متابعـة التأمـل في صفـات المسـلمين، حسـب الوصـف القـرآني الـوارد في الآيـة المثبـت نصهـا آنفـاً، والـذي منـه أنهـم رحمـاء بينهـم، إضافـة إلى كونهـم أشـداء عـلى الكفـار، هـم ونبيهـم، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، وعـلى مـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما} (الحجرات: 9).
2. المائدة: 54.
3. التفسير الكبير: 21 /12.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

وصِفات قرآنية لأتباعه

الحلقة الرابعة

يقول الله تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ...}[1]

وقفت الحلقة السابقة عند الصفة الثالثة من صفات النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، والذين معه، حسب المتضمن في الآية القرآنية من سورة الفتح المثبت جزء منها أعلاه، حيث تم التأمل بصفة: {رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} فمحمد، عليه الصلاة والسلام، والذين معه، قلوبهم في الأصل رقيقة تجاه بعضهم بعضاً، بخلاف ما يجده الناظر في واقعهم اليوم، من اضطراب في بوصلة الرحمة بينهم.

رُكَّعاً سُجَّداً:

من صفات محمد، صلى الله عليه وسلم، والذين معه، تميزهم بأداء الركوع والسجود، فيبدون للناظرين إليهم ركعاً سجداً، أي ترى هاتين الحالتين كثيراً فيهم[2]، فهم يواظبون على أداء الصلاة، وهي المشتملة على الركوع والسجود، وتجدر الإشارة إلى أنه لم يرد لفظ {ركعاً} بهذه الصيغة سوى مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في الآية 29 من سورة الفتح، بينما لفظ {سجداً} ورد في هذه الآية الكريمة، وفي عشرة مواضع أخرى غيرها، منها قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً}[3]

1. الفتح:29.
2. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 5 /141.
3. الفرقان:64.

وورد ذكر السجود مقترناً بالركوع في أمر مريم، عليها السلام بهما، المتضمن في قوله عز وجل: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}[1]

فحريٌّ بالمسلمين أن يحرصوا على التقرب إلى ربهم بالصلاة التي فرضها عليهم، خمس مرات في اليوم الواحد، إضافة إلى أداء سننها ونوافلها، أناء الليل وأطراف النهار، ليكونوا من العابدين لله، جل في علاه، دون سواه.

دعاء الساجدين والراكعين وتسبيحهم:

للركوع وللسجود أهمية بالغة في جانب تقرب العابدين إلى الله تعالى، ففيهما يسبحونه ويدعونه، يرجون رحمته ورضوانه، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول في رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللهم رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهم اغْفِرْ لي)[2]

وعنها رضي الله عنها، قالت: (افْتَقَدْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ إلى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَتَحَسَّسْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ، فإذا هو رَاكِعٌ أو سَاجِدٌ، يقول: سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إلا أنت، فقلت: بِأَبِي أنت وَأُمِّي، إني لَفِي شَأْنٍ، وَإِنَّكَ لَفِي آخَرَ)[3]

والعبد خلال سجوده لله يكون أقرب ما يكون من ربه سبحانه، كما جاء في الحديث الصحيح، عن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (أَقْرَبُ ما يَكُونُ الْعَبْدُ من رَبِّهِ وهو سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ)[4]

---

1. آل عمران:43.
2. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء في الركوع.
3. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.
4. التخريج نفسه.

لهذا السبب وجه الرسول، صلى الله عليه وسلم، العابدين إلى الإكثار من دعاء الله وهم ساجدون، فهي فرصة ذهبية تتاح لهم ليستغفروه، ويطلبوا حاجاتهم منه جل في علاه، ومن أدعية السجود المأثورة، ما جاء في حديث أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، كان يقول في سُجُودِهِ: (اللهم اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ)[1]

الطمأنينة في الركوع والسجود:

بعض المصلين يركع بعجلة يطلق على حالها أحياناً وصف (نقر الديك) ويحدث ما يشبه ذلك من بعضهم خلال سجوده، حتى إن الناظر إلى من يفعل ذلك يخيل إليه أنه لم يسبح في ركوعه وسجوده، بل قد يرفع من الركوع قبل أن تصل يداه ركبتيه، وقد يرفع من سجوده قبل أن تصل جبهته موضع سجوده، وهذا حال المسيء في صلاته، الذي أُمر بإعادة صلاته ليحقق فيها الطمأنينة، فعن أبي هُرَيْرَةَ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، دخل الْمَسْجِد، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، فَسَلَّمَ على النبي، صلى الله عليه وسلم، فَرَدَّ وقال: ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لم تُصَلِّ، فَرَجَعَ يُصَلِّي كما صلى، ثُمَّ جاء فَسَلَّمَ على النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لم تُصَلِّ، ثَلَاثًا، فقال: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ما أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي، فقال: إذا قُمْتَ إلى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ ما تَيَسَّرَ مَعَكَ من الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حتى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حتى تعدل قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حتى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حتى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذلك في صَلَاتِكَ كُلِّهَا)[2]

فينبغي للمسلم أن يثمن قدر الركوع والسجود في علاقته مع ربه سبحانه، وأن يؤديهما بتؤدة وطمأنينة، ليتذوق حلاوة التواصل مع الله فيهما، بالذكر والتسبيح

1. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.
2. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها.

والدعاء، حامداً له سبحانه أن أتاح له هذه الفرصة الذهبية، المتكررة مرات ومرات في اليوم والليلة، وكثير من الخلق يرجون أن تتاح لهم فرصة أن يلقوا بعض البشر من جنسهم مرة في العمر، ويعيشون ويموتون، دون أن تتحقق أمنيتهم، ولله المثل الأعلى دائماً وأبداً.

راجين الله سبحانه أن ييسر متابعة التأمل في صفات المسلمين، حسب الوصف القرآني الوارد في الآية أعلاه، والذي منه الثناء الرباني عليهم، كونهم ركعاً سجداً، يواظبون على ذلك، وأنهم رحماء بينهم، إضافة إلى كونهم أشداء على الكفار، هم ونبيهم، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

وصِفات قرآنية لأتباعه

الحلقة الخامسة

يقول الله تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ...}(*)

وقفت الحلقة السابقة عند الصفة الرابعة من صفات النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، والذين معه، حسب المتضمن في الآية القرآنية من سورة الفتح المثبت جزء منها أعلاه، حيث تم التأمل بصفة: {تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً} فمحمد، عليه الصلاة والسلام، والذين معه، يواظبون على الصلاة، ويكثرون من أدائها، وهي المشتملة على الركوع والسجود، اللذين لهما أهمية بالغة في جانب تقرب العابدين إلى الله تعالى، والعبد خلال سجوده لله يكون أقرب ما يكون من ربه سبحانه، فيكثر من الدعاء فيه، بالأدعية المأثورة وغيرها، وللطمأنينة في الركوع والسجود، أهمية خاصة، تبغي مراعاتها، مما يستدعي تأديتهما بتؤدة وطمأنينة، ليتذوق الراكع والساجد حلاوة التواصل مع الله فيهما، مرات ومرات في اليوم والليلة.

يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً:

من ضمن إشادة القرآن الكريم في الآية 29 من سورة الفتح بمحمد، صلى الله عليه وسلم، والذين معه، أنهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، في عبادتهم وأعمالهم وركوعهم وسجودهم ومواقفهم كلها، فمقاصدهم طاهرة نقية، تخلو من شوائب

* الفتح:29.

الشرك والنفعية والرياء، مبتغاهم نيل ثواب الله ورضوانه، لا يريدون من الناس جزاء ولا شكوراً، وقد وصف الله المنفقين منهم، فقال عز وجل على لسانهم: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً}[1]

فتطلع محمد، صلى الله عليه وسلم، والذين معه، يسمو على الأهداف الدنيوية، ليستهدف الفوز برضوان الله والجنة، بخلاف الأكثرين من الناس، الذين ينصب حرصهم على تحصيل حظوظ من الدنيا، تبدو زاهية لناظريها، وللمؤمنين مواقف تعبر عن تطلعهم المميز هذا، فحين تُعَرض عليهم أثمان مادية باهظة لصدقة قصدوا الله بها، يصرحون بأنهم تلقوا أرباحاً مضاعفة عما يعرض عليهم من البشر، يقصدون بذلك طبعاً الجزاء المضاعف للحسنات من رب العالمين.

وبهذا الصدد، أثنى الله على ابتغاء المهاجرين فضلاً من الله ورضواناً، فقال تعالى: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[2]

يريدون وجهه:

عبّر القرآن الكريم عن إخلاص النوايا من قبل الثلة المؤمنة، بأنهم يريدون وجه الله في أقوالهم وأعمالهم ومواقفهم، فقال عز وجل: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...}[3]

وورد التنبيه إلى هذه الصفة الجليلة من صفات الذين آمنوا مع نبيهم، صلى الله عليه وسلم، في سياق خطاب مشابه، للنبي، صلى الله عليه وسلم، دعي فيه إلى أن

1. الإنسان:9.
2. الحشر: 8.
3 الأنعام: 52.

يُصَبر نفسه مع المبتغين لفضل الله، فقال عز وجل: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...}[1]، فالله يحث نبيه، صلى الله عليه وسلم، على أن يصبر نفسه، مع العاملين لدينه، ابتغاء مرضاة ربهم، كما في الآية السالفة من سورة الأنعام، التي نهى الله فيها نبيه، صلى الله عليه وسلم، عن طرد الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، فبين الآيتين أكثر من قاسم مشترك، حيث العناية فيهما موجهة للذين يريدون وجه الله، والخطاب فيهما موجه للنبي، صلى الله عليه وسلم.

آثار تترتب على ابتغاء فضل من الله ورضوان:

نهى الله عن التعرض بالأذى لقاصدي البيت الحرام، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً ...}[2]

فسر هنا الفضل بالربح في التجارة، والرضوان الرحمة في الدنيا والآخرة.[3]

فهل بناء على هذه الآية الكريمة تكون لغير المسلمين الذين يبتغون شكلاً من أشكال فضل الله ورضوانه حرمة؟

يفصل الرازي في تفسير الفضل والرضوان، فيذكر أن فيهما وجهين:

الأول: يبتغون فضلاً من ربهم بالتجارة المباحة لهم في حجهم، كقوله: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُمْ}[4]، قالوا: نزلت في تجاراتهم أيام الموسم، والمعنى لا تمنعوهم، فإنما قصدوا البيت لإصلاح معاشهم ومعادهم، فابتغاء الفضل للدنيا، وابتغاء الرضوان للآخرة، قال أهل العلم: إن المشركين كانوا يقصدون بحجهم

1. الكهف: 28.
2. المائدة: 2
3. التسهيل لعلوم التنزيل، 1/ 167.
4. البقرة: 198

ابتغـاء رضـوان اللـه، وإن كانـوا لا ينالـون ذلـك، فـلا يبعـد أن يحصـل لهـم بسـبب هـذا القصـد نـوع مـن الحرمـة.

والوجـه الثـاني: أن المـراد بفضـل اللـه الثـواب، وبالرضـوان أن يـرضى عنهـم، وذلـك لأن الكافـر وإن كان لا ينـال الفضـل والرضـوان، لكنـه يظـن أنـه بفعلـه طالـب لهمـا، فيجـوز أن يوصـف بذلـك بنـاءً عـلى ظنـه.

وتعـرض الـرازي لاختـلاف النـاس حـول هـذا الحكـم المتضمـن في هـذه الآيـة الكريمة، فقـال بعضهـم: هـذه الآيـة منسـوخة؛ وقـال آخـرون مـن المفسريـن: إنهـا غـير منسـوخة.(*)

فابتغـاء الفضـل مـن اللـه والرضـوان، مـن مـكارم الكـرام، وعـلى رأسـهم محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، والذيـن معـه، راجـين اللـه سـبحانه أن ييـسر متابعـة التأمـل في صفات المسـلمين، حسـب الوصـف القـرآني الـوارد في الآيـة أعـلاه، والـذي منـه الثنـاء الربـاني عليهـم كونهـم يَبْتَغُـونَ فَضْـلاً مِّـنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانـاً، إضافـة إلى كونهـم ركعـاً سـجداً، يواظبـون عـلى ذلـك، وأنهـم رحمـاء بينهـم، أشـداء عـلى الكفـار، هـم ونبيهـم، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، وعـلى مـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

* التفسير الكبير :11/ 102 - 103.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

وصِفات قرآنية لأتباعه

الحلقة السادسة

يقول الله تعالى:{مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ...}(*)

وقفت الحلقة السابقة عند الصفة الخامسة من صفات النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، والذين معه، حسب المتضمن في الآية القرآنية من سورة الفتح المثبت جزء منها أعلاه، حيث تم التأمل بصفة: {يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً}

ويكون ابتغاء محمد، صلى الله عليه وسلم، والذين معه للفضل والرضوان في عبادتهم، وأعمالهم، وركوعهم، وسجودهم، ومواقفهم كلها، فمقاصدهم طاهرة نقية، تخلو من شوائب الشرك والنفعية والرياء، يرجون نيل ثواب الله ورضوانه، ولا يريدون من الناس جزاءً ولا شكوراً، وأثنى الله بشكل خاص على ابتغاء المهاجرين فضلاً من الله ورضواناً، ومن الآثار التي تترتب على ابتغاء الفضل من الله والرضوان، نهي الله عن التعرض بالأذى لقاصدي البيت الحرام، وقد نقل عن أهل العلم: إن المشركين كانوا يقصدون بحجهم ابتغاء رضوان الله، وإن كانوا لا ينالون ذلك، فلا يبعد أن يحصل لهم بسبب هذا القصد نوع من الحرمة.

---

* الفتح:29

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ:

سبق أن تعرضت الحلقة الرابعة لصفة الركع السجود، التي حافظ على التحلي بها النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، والذين معه، حسب ما ورد في الآية الكريمة أعلاه، وفي الآية الكريمة نفسها ثناء عليهم تابع لسجودهم، أن علامات السجود تظهر على وجوههم، جاء في التسهيل لعلوم التنزيل: أن السيما العلامة، وفيه ستة أقوال: أظهرها والله أعلم، أنه الأثر الذي يحدث في جبهة المصلي من كثرة السجود.[1]

وجاء في تفسير ابن كثير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: سيماهم في وجوههم يعني السمت الحسن، وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخشوع والتواضع، وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس، وقال أمير المؤمنين عثمان، رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، والغرض أن الشيء الكامن في النفس، يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى، أصلح الله عز وجل ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: من أصلح سريرته، أصلح الله تعالى علانيته.[2]

شواهد نصية على تعبير ظواهر الجسد عن مكنوناته:

وجود علامات في وجوه الساجدين من أثره ظاهرة، لها معاضدات أخرى في آيات قرآنية، أشارت إلى علامات محمودة، وأخرى مذمومة، تظهر على أجزاء من جسد الإنسان، معظمها متعلق بما سيكون يوم القيامة، وبعضها يتعلق بأحوال الخلق في الدنيا أيضاً،

1. التسهيل لعلوم التنزيل، 4 /56.
2. تفسير ابن كثير، 4 /205.

فالله تعالى يخبر أنه في يوم القيامة تظهر علامة السواد أو البياض على وجوه الخلق، بحسب ما أسلفوا في دنياهم، فقال عز وجل: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[1]

ويقول عز وجل: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ}[2]

ولا يقتصر التعبير عن أحوال الخلق يوم القيامة على لون الوجوه، وإنما يعبر انفسارها وعبوسها أيضاً عن أحوالها، مصداقاً لقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ* ضَاحِكَةٌ مسْتَبْشِرَةٌ* وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ* أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ}[3]

وأشار القرآن الكريم كذلك إلى دلالات تظهر على العيون، توحي بالمضمر من أفعال صاحبها، فقال جل شأنه: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}[4]

يرى الزمخشري، أن الخائنة صفة للنظرة، أو مصدر بمعنى الخيانة، كالعافية بمعنى المعافاة، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل، كما يفعل أهل الريب، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين.[5]

وفي تفسير ابن كثير، عن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، قال: يعلم الله تعالى من العين في نظرها، هل تريد الخيانة أم لا، وكذا قال مجاهد وقتادة.[6]

---

1. آل عمران: 106 - 107.
2. الزمر: 60.
3. عبس:38 - 42.
4. غافر: 19.
5. الكشاف، 4/ 163.
6. تفسير ابن كثير، 4 /76.

ومـن العلامـات الظاهـرة الدالـة عـلى مكنونـات النفـوس، التعبـير اللسـاني، حيـث يقـول تعـالى: {وَلَـوْ نَشَـاء لَأَرَيْنَاكَهُـمْ فَلَعَرَفْتَهُـم بِسِـيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُـمْ فِي لَحْـنِ الْقَـوْلِ وَاللَّـهُ يَعْلَـمُ أَعْمَالَكُـمْ}[*]

فهـذه نمـاذج لحـالات تعبـير ظاهـر المـرء عـن مكنوناتـه وأفعالـه المضمـرة، وردت الإشـارة إليهـا في نصـوص شرعيـة، وتـم الاسـتدلال بهـا في سـياق الحديـث عـن تعبـير الوجـوه، بـدلالات خاصـة عـلى سـجود السـاجدين.

راجـين اللـه سـبحانه أن ييـسر متابعـة التأمـل في صفـات المسـلمين وأحوالهم، حسـب الـوارد في الآيـة القرآنيـة (29) مـن سـورة الفتـح، والـذي منـه الثنـاء الربـاني عليهـم كونهـم يَبْتَغُـونَ فَضْـلاً مِّـنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانـاً، إضافـة إلى كونهـم ركعـاً سـجداً، يواظبـون عـلى ذلـك، وأنهـم رحمـاء بينهـم، أشـداء عـلى الكفـار، هـم ونبيهـم، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، وعـلى مـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

* محمد: 30.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

وصِفات قرآنية لأتباعه

الحلقة السابعة

يقول الله تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ...}(*)

وقفت الحلقة السابقة عند الصفة السادسة من صفات النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، والذين معه، حسب المتضمن في الآية القرآنية (29) من سورة الفتح، المثبت معظمها أعلاه، حيث تم التأمل بصفة: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ} فمحمد، صلى الله عليه وسلم، والذين معه الركع السجود، تظهر على وجوههم علامات السجود، وقد قيل في تفسير هذه الصفة أقوال، من أظهرها، أنها الأثر الذي يحدث في جبهة المصلي من كثرة السجود، وقيل: إنها السمت الحسن، وقيل: الخشوع والتواضع، وقيل: إن الصلاة تحسن وجوههم، ويعضد هذا قول بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل، حسن وجهه بالنهار.

وتضمنت الحلقة كذلك شواهد نصية على تعبير ظواهر الجسد عن مكنوناته، فكما أن وجود علامات في وجوه الساجدين تكون من أثره، ففي آيات قرآنية إشارات إلى علامات محمودة، وأخرى مذمومة تظهر على أجزاء من جسد الإنسان، معظمها متعلق

* الفتح:29.

بما سيكون يوم القيامة، وبعضها يتعلق بأحوال الخلق في الدنيا أيضاً، فالله تعالى أخبر أن في يوم القيامة تظهر علامة السواد أو البياض على وجوه الخلق، بحسب ما أسلفوا في دنياهم، ويعبر انفسار الوجوه وعبوسها أيضاً عن أحوالها، وهناك دلالات تظهر على العيون توحي بالمضمر من أفعال أصحابها، كخائنة الأعين المشار إليها في قوله جل شأنه: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}[*]

مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ:

أشارت الآية 29 من سورة الفتح، إلى أن مثل النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، والذين معه، في التوراة والإنجيل، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، جاء في تفسير أبي السعود، أن من نعوتهم الجليلة، وما فيه من معنى البعد، مع قرب العهد بالمشار إليه، للإيذان بعلو شأنه، وبعد منزلته في الفضل، وقوله تعالى: {مَثَلُهُمْ}؛ أي وصفهم العجيب الشأن، الجاري في الغرابة مجرى الأمثال، {فِي التَّوْرَاةِ} حال من مثلهم، {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ} عطف على مثلهم الأول، كأنه قيل: ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل، وتكرير مثلهم لتأكيد غرابته، وزيادة تقريرها.

{كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ... } تمثيل مستأنف، أي هم كزرع أخرج فراخه، وقيل: هو تفسير لذلك،على أنه إشارة مبهمة، وقيل: خبر لقوله تعالى: {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ} على أن الكلام قد تم عند قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ}.

{فَآزَرَهُ} فقواه، من المؤازرة، بمعنى المعاونة، أو من الإيزار، وهي الإعانة، {فَاسْتَغْلَظَ} فصار غليظاً، بعد ما كان دقيقاً، {فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ} فاستقام على قصبه، جمع ساق، {يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ} بقوته وكثافته، وحسن منظره.

* غافر: 19.

وهـو مثـل ضربـه اللـه عـز وجـل لأصحابـه عليـه الصـلاة والسـلام، قلـوا في بـدء الإسـلام، ثـم كـثروا واسـتحكموا، فـترق أمرهـم يومـاً فيومـاً، بحيـث أعجـب النـاس، وقيـل: مكتـوب في الإنجيـل، سـيخرج قـوم ينبتـون نبـات الـزرع، يأمـرون بالمعـروف، وينهـون عـن المنكـر.

وقولـه تعـالى: {لِيَغِيـظَ بِهِـمُ الْكُفَّـارَ} علـة لمـا يعـرب عنـه الـكلام مـن تشـبههم بالزرع في زكائـه واسـتحكامه.(*)

مزيد من التأويل لمَثَلُهُم فيِ التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فيِ الْإِنجِيلِ:

جـاء في تفسـير الثعالـبي، أن ذلـك الوصـف هـو مثلهـم في التـوراة، ومثلهـم في الإنجيـل، وتـم القـول، وكـزرع ابتـداء تمثيـل، وقـال الطـبري وحـكاه عـن الضحـاك: المعـنى ذلـك الوصـف هـو مثلهـم في التـوراة، وتـم القـول، ثـم ابتـدأ، ومثلهـم في الإنجيـل كـزرع، وقيـل غـير هـذا، وأبينهـا الأول، ومـا عـداه يفتقـر إلى سـند يقطـع الشـك.

وقولـه تعـالى: {كَـزَرْعٍ} هـو مثـل للنـبي، عليـه الصـلاة والسـلام، وأصحابـه، في أنـه بعـث وحـده، فـكان كالـزرع، حبـة واحـدة، ثـم كـثر المسـلمون، {كَـزَرْعٍ أَخْـرَجَ شَـطْأَهُ} فهـم كالشـطء، وهـو فـراخ السـنبلة الـتي تنبـت حـول الأصـل، يقـال: أشـطأت الشـجرة؛ إذا أخرجـت غصونهـا، وأشـطأ الـزرع؛ إذا أخـرج شـطأه.

وقولـه تعـالى: {فَـآزَرَهُ} لـه معنيـان، أحدهمـا: سـاواه طـولاً، والثـاني: أن آزره ووازره بمعـنى أعانـه وقـواه، مأخـوذ مـن الأزر، وفاعـل آزر يحتمـل أن يكـون الشـطء، ويحتمـل أن يكـون الـزرع.

* تفسير أبي السعود، 8 /115.

وقوله تعالى: {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} ابتداء كلام، قبله محذوف، تقديره: جعلهم الله بهذه الصفة ليغيظ بهم الكفار، قال الحسن: من غيظ الكفار قول عمر بمكة: لا يُعْبَد الله سراً بعد اليوم.(*)

راجين الله سبحانه أن ييسر ختم التأمل في صفات المسلمين وأحوالهم، حسب الوارد في الآية القرآنية أعلاه، والذي منه أن مثلهم في التوراة والإنجيل، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وأن سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ، وأنهم يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً، إضافة إلى كونهم ركعاً سجداً، يواظبون على ذلك، وأنهم رحماء بينهم، أشداء على الكفار، هم ونبيهم، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* تفسير الثعالبي، 4/ 184 - 185.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

وصِفات قرآنية لأتباعه

الحلقة الثامنة والأخيرة

يقول الله تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}(*)

وقفت الحلقة السابقة عند الصفة السابعة من صفات النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، والذين معه، حسب المتضمن في نص الآية القرآنية (29)من سورة الفتح، المثبت أعلاه، حيث تم التأمل بمَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ، وجاء في التفسير أن هذا من نعوتهم الجليلة، ووصفهم عجيب الشأن، الجاري في الغرابة مجرى الأمثال، والذي فصلت التفاسير معانيه.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً:

الآية الكريمة أعلاه تضمنت صفات وأحوالاً لمحمد، صلى الله عليه وسلم، والذين معه، سبق أن أفرد لسبع منها حلقات سبع من هذه الزاوية الصحفية الدينية، وها هو مسك الختام ثامنها يشار إليه في مقطعها التعقيبي الأخير، حيث قطع الله جل

* الفتح: 29.

في علاه وعداً للذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً، ومما يعنيه هذا التعقيب أن صفات المدح السابقة إنما ينال أصحابها المغفرة والأجر العظيم لتقيدهم بالإيمان، وأداء الأعمال الصالحة، وليست المسألة امتيازات فخرية تمنح للمنتسب اسماً لهذه الشريحة من خلق الله، وهذا الشرط للخيرية والفوز، تكرر اشتراط مشابهه لنيل أمة الإسلام مرتبة الخيرية، فقال عز وجل: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ...} [1]

جاء في التفسير الكبير، أن قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} أي وعد ليغيظ بهم الكفار، يقال: رغماً لأنفك أنعم عليه، وقوله تعالى: {مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}لبيان الجنس لا للتبعيض، ويحتمل أن يقال هو للتبعيض، ومعناه ليغيظ الكفار، والذين آمنوا من الكفار لهم الأجر العظيم، وهاهنا لطيفة، وهو أنه تعالى قال في حق الراكعين والساجدين إنهم: {يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ} وقال لهم أجر، ولم يقل لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل؛ وذلك لأن المؤمن عند العمل لم يلتفت إلى عمله، ولم يجعل له أجراً يعتد به، فقال: لا أبتغي إلا فضلك، فإن عملي نزر لا يكون له أجر، والله تعالى آتاه ما آتاه من الفضل، وسماه أجراً إشارة إلى قبول عمله، ووقوعه الموقع، وعدم كونه عند الله نزراً لا يستحق عليه المؤمن أجراً، وقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}لبيان ترتب المغفرة على الإيمان، فإن كل مؤمن يغفر له، كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} [2] ، والأجر العظيم على العمل الصالح، والله أعلم. [3]

---

1. آل عمران:110.
2. النساء: 48.
3. التفسير الكبير، 28 /94.

ويلخص السعدي مضمون هذا الوعد الرباني الكريم، فيقول: فالصحابة، رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.[1]

صفات جليلة أجملتها آية قرآنية واحدة:

المتدبر في الآية القرآنية التاسعة والعشرين والأخيرة من سورة الفتح، والمثبت نصها صدارة هذا المقال، يلحظ أمرين عظيمين:

أحدهما؛ يخص القرآن الكريم.

وثانيهما؛ يخص المؤمنين به، فالقرآن الكريم المتميز بالفصاحة والبلاغة، وسحر البيان، أجمل في آية محدودة الألفاظ والجمل، من المعاني التي يطول شرحها، وهذا من أبرز وجوه البلاغة والفصاحة، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، تميز بأنه أوتي جوامع الكلم، حيث يقول: (بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أنا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأرض، فَوُضِعَتْ في يَدِي. قال أبو عَبْد اللَّهِ: وَبَلَغَنِي أَنَّ جَوَامِعَ الكَلِمِ أَنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ الْأُمُورَ الْكَثِيرَةَ التي كانت تُكْتَبُ في الْكُتُبِ قَبْلَهُ في الْأَمْرِ الْوَاحِدِ وَالْأَمْرَيْنِ، أو نحو ذلك).[2]

أما الأمر الثاني؛ فيتعلق بصاحب هذه الرسالة، صلى الله عليه وسلم، الذي ألقى الله عليه بها قولاً ثقيلاً، وبالذين صدقوه واتبعوه، فقد نالوا رفيع المنازل، وأرقى الدرجات، لتأهلهم بصفات عظيمة الشأن، ألمحت إلى بعضها مضامين هذه الآية الكريمة.

1. تفسير السعدي، 1 /796.
2. صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب المفاتيح في اليد.

إجمال لمضامين خاتمة سورة الفتح:

يقول ابن تيمية، خلال وقوفه عند هذه الآية الكريمة، التي ختمت بها سورة الفتح: ولا ريب أن هذا مدح لهم بما ذكر من الصفات، وهو الشدة على الكفار، والرحمة بينهم، والركوع والسجود، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، والسيما في وجوههم من أثر السجود، وأنهم يبتدؤون من ضعف، إلى كمال القوة والاعتدال، كالزرع، والوعد بالمغفرة، والأجر العظيم، ليس على مجرد هذه الصفات، بل على الإيمان والعمل الصالح، فذكر ما به يستحقون الوعد، وإن كانوا كلهم بهذه الصفة، ولولا ذكر ذلك لكان يظن أنهم بمجرد ما ذكر يستحقون المغفرة، والأجر العظيم، ولم يكن فيه بيان سبب الجزاء، بخلاف ما إذا ذكر الإيمان والعمل الصالح، فإن الحكم إذا علق باسم مشتق مناسب، كان ما منه الاشتقاق سبب الحكم.[*]

وبهذا الإجمال نختم التأمل في صفات المسلمين وأحوالهم، حسب الوارد في الآية القرآنية (29) من سورة الفتح، والتي سبق الوقوف عند بعض تفاصيلها، عنهم وعن نبيهم، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* دقائق التفسير: 2 /112.

الفصل الرابع / سيرة نبوية

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	نهاه الله أن يذهب نفسه عليهم حسرات - الحلقة الأولى	95
.2	نهاه الله أن يذهب نفسه عليهم حسرات - الحلقة الثانية والأخيرة	98
.3	بلغ عن ربه دعاء أخيه نوح عليه السلام: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} - الحلقة الأولى	102
.4	بلغ عن ربه دعاء أخيه نوح عليه السلام: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} - الحلقة الثانية	105
.5	بلغ عن ربه دعاء أخيه نوح، عليه السلام: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} - الحلقة الثالثة والأخيرة	109
.6	ولد يتيماً فآواه الله، ونهاه عن قهر اليتيم	112
.7	ينتصر له الله وجبريل وصالح المؤمنين وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ	115
.8	بشره ربه بهزيمة جمع أعدائه وأنهم سيولون الدبر - الحلقة الأولى	119
.9	بشره ربه بهزيمة جمع أعدائه وأنهم سيولون الدبر - الحلقة الثانية والأخيرة	122

نهاه الله أن يُذهب نفسه عليهم حسرات

الحلقة الأولى

يقول عز وجل في محكم التنزيل: {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}[1]

تضمنت الآية القرآنية المثبت نصها أعلاه، نهي من رب العزة، لنبيه الكريم، محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، عن أن يذهب نفسه عليهم حسرات، جاء ذلك بعد تعريض بالمقصودين في الضمير المتصل بحرف الجر {عليهم} فهم الذين زين لهم سوء عملهم، فرأوه حسناً، إضافة إلى تأكيد الحقيقة العقائدية، الخاصة بحصول الهداية أو الضلال، إذ إن ذلك مرتبط بالمشيئة الربانية، وختمت الآية الكريمة بتأكيد حقيقة عقائدية أخرى، تتعلق بعلم الله سبحانه بما يصنع خلقه، مصداقاً لقوله تعالى: {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[2]

تزيين سوء العمل:

جاء في التسهيل لعلوم التنزيل، أن قوله تعالى: {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ} توقيف، وجوابه محذوف، تقديره: أفمن زين له سوء عمله، كمن لم يزين له؟ ثم بني على ذلك ما بعده، فالذي زين له سوء عمله هو الذي أضله الله، ومن لم يزين له سوء عمله هو الذي هداه الله.[3]

هذا المقطع من الآية 8 من سورة فاطر، ذكرت مقارنة ذات صلة بمضمونه في سورة محمد، وذلك في قوله تعالى:{أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ}[4]

1. فاطر:8.
2. سبأ: 3.
3. التسهيل لعلوم التنزيل، 3 /155.
4. محمد: 14.

يقول الرازي: يعني ليس من عمل سيئاً، كالذي عمل صالحاً، كما قال بعد هذا بآيات: { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ }[1]، وله تعلق بما قبله، وذلك من حيث إنه تعالى لما بين حال المسيء الكافر، والمحسن المؤمن، وما من أحد يعترف بأنه يعمل سيئاً إلا قليل.[2]

الهداية والضلال من عند الله:

عند تفسير قوله تعالى: {...فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ...}، يقول الرازي: الناس أشخاصهم متساوية في الحقيقة، والإساءة والإحسان، والسيئة والحسنة، يمتاز بعضها عن بعض، فإذا عرفها البعض دون بعض، لا يكون باستقلال منهم، فلا بد من الاستناد إلى إرادة الله.[3]

وفي تفسير أبي السعود، أن قوله تعالى: { فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ..الخ} تقرير له، وتحقيق للحق، ببيان أن الكل بمشيئته تعالى، أي فإنه تعالى يضل من يشاء أن يضله، لاستحسانه واستحبابه الضلال، وصرف اختياره إليه، فيرده أسفل سافلين، ويهدي من يشاء أن يهديه، بصرف اختياره إلى الهدى، فيرفعه إلى أعلى عليين، وإما تمهيد لما يعقبه، من نهيه صلى الله عليه وسلم، عن التحسر والتحزن عليهم؛ لعدم إسلامهم، ببيان أنهم ليسوا بأهل لذلك، بل لأن يضرب عنهم صفحاً، ولا يبالي بهم قطعاً، أي أبعد، كون حالهم كما ذكر تتحسر عليهم، فحذف لما دل عليه.[4]

النهي عن إذهاب النفس حسرات على الضالين:

ينهى الله عز وجل في الآية الكريمة أعلاه رسوله، صلى الله عليه وسلم، عن أن يُذهب نفسه حسرات على من زُين لهم سوء أعمالهم من الضالين، فقال تعالى: {...فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ...} يرى صاحب التسهيل لعلوم التنزيل، أن في هذا تسلية للنبي، صلى الله عليه وسلم، عن حزنه؛ لعدم إيمانهم؛ لأن ذلك بيد الله.[5]

---

1. فاطر: 19 - 20.
2. التفسير الكبير، 26 /6.
3. التفسير الكبير، 26 /6 - 7.
4. تفسير أبي السعود، 7 /144.
5. التسهيل لعلوم التنزيل، 3 /155

يقول الزمخشري: وإذا خذل الله المصممين على الكفر، وخلاهم وشأنهم، فإن على الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن لا يهتم بأمرهم، ولا يلقي بالاً إلى ذكرهم، ولا يحزن ولا يتحسر عليهم، اقتداء بسنة الله تعالى في خذلانهم وتخليتهم.

وذكر الزجاج أنّ المعنى أفمن زين له سوء عمله، ذهبت نفسك عليهم حسرة، فحذف الجواب لدلالة {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}، أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله، فحذف لدلالة {فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء} عليه، وحسرات مفعول له، يعني فلا تهلك نفسك للحسرات، و{عَلَيْهِمْ} صلة تذهب، كما تقول: هلك عليه حباً، ومات عليه حزناً، أو هو بيان للمتحسر عليه، ولا يجوز أن يتعلق بحسرات؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته، ويجوز أن يكون حالاً، كأن كلها صارت حسرات؛ لفرط التحسر.[1]

عِلْمُ الله بزيغ الضالين وسوء عملهم:

ختمت الآية الثامنة من سورة فاطر بتعقيب متصل بمضمونها، فقال تعالى: {... إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} فالله جل ذكره يبين لنبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، أن ربه ذو علم بما يصنع هؤلاء، الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، وهو محصيه عليهم، ومجازيهم به جزاءهم.[2]

وعن هذا التعقيب يقول الزمخشري: وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.[3]

آملين متابعة الحديث عن هذا النهي، وربطه بحال المسلمين اليوم، في ضوء الخطاب الرباني الكريم الموجه لخير الأنام، نبيه محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أجمعين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الكشاف 3 /609.
2. تفسير الطبري، 22 /118.
3. الكشاف 3/ 610.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

نهاه الله أن يُذهب نفسه عليهم حسرات

الحلقة الثانية والأخيرة

يقول عز وجل في محكم التنزيل:{أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}[1]

وقفت الحلقة السابقة عند أربعة محاور، تضمنتها الآية الكريمة الثامنة من سورة فاطر، تلكم هي: تزيين سوء العمل لبعض الناس الذين رأوه حسناً، والهداية والضلال من عند الله، يوفق إلى كل منهما، من هو أهل لذلك، والنهي عن إذهاب النفس حسرات على الضالين، فلا طائل يرجى من ذلك، وأن الله عليم بزيغ الضالين وسوء عملهم، وفي ظل ما يعيشه الناس في هذا العالم، وبخاصة المسلمين منه، فمن المفيد ربط مضامين هذه الآية الكريمة بأحوال الناس بعامة، والمسلمين بخاصة، عند التلبس برؤية الإساءة إحساناً، في ظل تقلب المفاهيم، واختلاط المعايير، واضطراب القيم.

عمل قوم لوط يراه بعض الناس حسناً:

في ثنايا قصة قوم لوط، يجد متابعها كيف أن فعلهم المقيت، وجده الساعون إليه، والمتشغفون إليه حسناً، في مقابل نظرتهم لطهر لوط، ومن آمنوا معه، جريمة استنكروها، وحاربوا لوطاً لأجلها، ويخبر الله عن هذا الخلل في المعايير فيقول عز وجل: {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}[2].

1. فاطر:8.
2. الأعراف:82.

وتكرر مثل هذا الإخبار عنهم في قوله تعالى: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}[1]

وعلى غرار هذا الانحراف ينهج المتخبطون في وحل الضلال، فيدافعون عن فعل اللواط وأشباهه تحت ذريعة احترام الحريات الشخصية، والميول الفردية، بغض النظر عن القيم والأخلاق والأحكام الشرعية السماوية، ولا يقل عن هذا الصنف من المنحرفين أولئك الذين يزينون قبح المواقف ونذالتها وخستها، ويدافعون عنها بشراسة المحاربين، ولو رجعوا إلى قليل من العقل والتدبر والحكمة، لوجدوا أن التفريط في القدس والمسجد الأقصى المبارك، جريمة نكراء، فهو المسرى، والقبلة الأولى، وأحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، وثاني مسجد وضع في الأرض لعبادة الله بعد المسجد الحرام، فكيف يستساغ قلب ظهر المجن له، وإغماض العيون عن استباحته، وتهديد وجوده، وسفك دماء الأبرياء من رواده، والمرابطين في رحابه وأكنافه؟؟!!

فالذي يبدو واضحاً أن الذين ضلوا الدرب، زين لهم الشيطان سوء عملهم، فرأوه حسناً، مما يستدعي الأخذ بالتوجيه الرباني حيالهم، وذلك بأن لا تذهب النفوس عليهم حسرات، فهم قد ضلوا السبيل، والله عليم بما صنعوا ويصنعون، وقد وصف الله أمثالهم بقوله عز وجل: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً}[2]

وفي معرض التدبر في دلالات هذه الآية الكريمة وأخواتها، يقول صاحب أضواء البيان: هذه النصوص القرآنية تدل على أن الكافر لا ينفعه ظنه أنه على هدى؛ لأن الأدلة

1. النمل: 56.

2 الكهف:104.

الـتي جـاءت بهـا الرسـل، عليهـم السـلام، لـم تـترك في الحـق لبسـاً ولا شـبهة، ولكـن الكافـر لشـدة تعصبـه للكفـر، لا يـكاد يفكـر في الأدلـة الـتي هـي كالشـمس في رابعـة النهـار؛ لجاجـاً في الباطل وعناداً.[1]

أخسرون أعمالاً ويحسبون أنهم مهتدون:

تعـرض القـرآن إلى كشـف زيـغ الضالـين عـن دربـه، ممـن ظنـوا أنهـم بضلالهـم مهتـدون، فبـين سـبحانه أنهـم أوليـاء الشـيطان، وحـق عليهـم الضلالـة، فقـال جـل شـأنه:{فَرِيقاً هَـدَى وَفَرِيقـاً حَـقَّ عَلَيْهِـمُ الضَّلاَلَـةُ إِنَّهُـمُ اتَّخَـذُوا الشَّـيَاطِينَ أَوْلِيَـاء مِـن دُونِ اللّـهِ وَيَحْسَـبُونَ أَنَّهُـم مُّهْتَـدُونَ}[2]

ولأن ديـدن المنحرفـين عـن الصـواب الزيـغ، واسـتمراء الضـلال، فإنهـم حـتى يـوم القيامـة يحاولـون ممارسـة سـلوكهم المنحـرف، فيحلفـون للـه كمـا كانـوا يحلفـون لعبـاده في الدنيـا، ظنـاً منهـم أنهـم عـلى حـق، وأن لديهـم حجـة ومنطقـاً ومـبررات، لكـن اللـه وصفهـم بالكـذب، وهـو مـن أحـط الصفـات وأقبحهـا، فقـال تعالى:{يَـوْمَ يَبْعَثُهُـمُ اللَّـهُ جَمِيعـاً فَيَحْلِفُـونَ لَـهُ كَمَـا يَحْلِفُـونَ لَكُـمْ وَيَحْسَـبُونَ أَنَّهُـمْ عَـلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُـمْ هُـمُ الْكَاذِبُـونَ}[3]

وقـد أنبـأ اللـه عـن الأخسريـن أعمـالاً، فقـال عـز وجل:{قُـلْ هَـلْ نُنَبِّئُكُـمْ بِالْأَخْسَرِيـنَ أَعْمَـالاً* الَّذِيـنَ ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَـا وَهُـمْ يَحْسَـبُونَ أَنَّهُـمْ يُحْسِـنُونَ صُنْعـاً}[4]

فليسـت العـبرة إذن بالحذلقـات والتشـدقات، والتزيينـات للخطابـات، والمواقـف والشـخوص، والـتي يتـم خـلال بعضهـا اسـتخدام أصبـاغ تزيينيـة مسـتعارة للأعمـال والمواقف والأقـوال عـلى سـوئها وقباحتهـا، وزيـغ أهلهـا عـن الهـدى، وإنمـا العـبرة كل العـبرة لموافقـة

1. أضواء البيان، 2 /13.
2. الأعراف: 30.
3. المجادلة:18.
4. الكهف: 103 - 104.

شرع الله، والعمل بمقتضاه، دون اتباع لهوى، أو التعصب لقبيلة، أو إيثار محبة الآباء والأمهات والأبناء والإخوة والتجارة والمساكن، على محبة الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، والجهاد في سبيل الله، حيث حذر الله من هذا الزيغ المبين، فقال في محكم التنزيل: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}(*)

فما عند الله خير وأبقى، والباقيات الصالحات خير، والحق خير بالاتّباع والحرص، والذود عن حياضه، وشتان بين الذي يلقى ربه بما قدم، وأسلف في صف الحق، وبين الذي باع دينه بدنياه، أو بدنيا غيره.

وصلى الله وسلم على رسولنا محمد، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين ، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* التوبة:24.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

بلغ عن ربه دعاء أخيه نوح عليه السلام: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ}

الحلقة الأولى

يقول الله تعالى في قرآنه الكريم:{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ* فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ}[1]

الصراع بين الحق والباطل يتواصل منذ الأزل، وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، وجولاته اليوم، شهد شبيهاً بها السالفون، ومنهم الأنبياء، عليهم السلام، حين كذبوا، وأوذوا، واضطهدوا، والذين آمنوا معهم، وطفح الكيل بالمصاعب التي واجهتهم، حتى إن نوحاً، عليه السلام، دعا ربه أن ينتصر له، لينقذه من جبروت قومه، كما هو مثبت في الآية القرآنية الكريمة أعلاه من سورة القمر، فقال: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ}، أي قد غلبني الكفار فانتصر لي، أو انتصر لنفسك.[2] ويفسر الزمخشري معنى قوله:{أني مغلوب} أي غلبني قومي، فلم يسمعوا مني، واستحكم اليأس من إجابتهم لي، وقوله: {فَانتَصِرْ} أي فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم، وإنما دعا بذلك بعدما طم عليه الأمر، وبلغ السيل الزبا.[3]

الاستعانة بالله:

الناس أفراداً وجماعات يحتاجون إلى عون الله في قضاء حاجاتهم كلها، ودفع الشر والضر عنهم، فإذا لم يكن من الله عون للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده، والمؤمن بالله رباً، يوقن بهذه الحقيقة، فالمسلم يردد في كل ركعة يصليها قوله تعالى في فاتحة الكتاب: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[4]، والرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم،

1. القمر:9 - 10
2. التسهيل لعلوم التنزيل:4/ 80
3. الكشاف:4/ 434.
4. الفاتحة:5.

كان يأخذ بأسباب الشفاء والنصر وكل خير، دون أن يغفل عن دعاء الله، ومن الشواهد البينة على هذا، إلحاحه على الله بخالص الدعاء أن ينصره على أعدائه، وهو يستعد لأول لقاء حربي واسع النطاق معهم، ففي الحديث الصحيح عن عبد اللَّهِ بن عَبَّاسٍ، قال: حدثني عُمَرُ بن الْخَطَّابِ، قال: لَمَّا كان يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثلاثمائة وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللهم أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي، اللهم آتِ ما وَعَدْتَنِي، اللهم إن تُهْلِكْ هذه الْعِصَابَةَ من أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ في الأرض، فما زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حتى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عن مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أبو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ على مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ من وَرَائِهِ، وقال: يا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ الله عز وجل:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ من الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} فَأَمَدَّهُ الله بِالْمَلَائِكَةِ)[1]

فالاستعانة بالله يدرك الحاجة إليها دائماً المؤمنون، وقد أوصاهم بها النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال:(احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ولا تَعْجَزْ)[2]، وأوصى بها موسى، عليه السلام، قومه، حسب ما جاء في قوله تعالى:{قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[3]

الغلبة النهائية والحتمية لله وجنده:

العبرة في أي صراع بالنهايات والمآلات، والمتصفح للتاريخ يلحظ أن عربدة أهل الباطل كانت تنتهي بالاندحار، ومصاعب أهل الحق كانت تنتهي بالانتصار، فقد انتهت بدر بانتصار مظفر للمسلمين بقيادة نبيهم، صلى الله عليه وسلم، فنصر الله جنده نصراً أخبر عنه في قرآنه الكريم، فقال عز وجل:{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[4].

1. صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم.
2. صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله.
3. الأعراف:128.
4. آل عمران: 123.

ونوح، عليه السلام، لما دعا ربه قائلا: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} أجاب الله دعاءه، وسلط على أعدائه جند سمائه، فأنزل عليهم ماء منهمراً، أغرقهم به، جاء ذلك كاستجابة فورية لدعائه عليه السلام، بدليل بدء الخطاب القرآني المتعلق بالإخبار عن هذا الحدث الرباني العظيم بحرف الفاء، الذي يفيد الترتيب والتعقيب، فقال عز وجل: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ* وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ* تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ* وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ* فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ* وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}[1]

جاء في أضواء البيان أن نوحاً، عليه السلام، دعا الله قائلاً: إن قومه غلبوه، وسأل ربه أن ينتصر له منهم، وأن الله انتصر له منهم فأهلكهم بالغرق، لأنه تعالى فتح أبواب السماء بماء منهمر، أي متدفق منصب بكثرة، وأنه تعالى فجر الأرض عيوناً، والأصل فجرنا عيون الأرض، والتفجير إخراج الماء منها بكثرة.

و(الـ) في قوله: {فَالْتَقَى الْمَآءُ} للجنس، ومعناه التقى ماء السماء وماء الأرض، على أمر قدره الله وقضاه، وقيل: إن معناه أن الماء النازل من السماء، والمتفجر من الأرض جعلهما الله بمقدار، ليس أحدهما أكثر من الآخر، والأول أظهر.[2]

راجين الله العلي القدير أن يهدينا ومن يتدبر بهذه السطور، بما تضمنته من آيات قرآنية كريمة، لأخذ خير العبر والعظات منها، وأن ييسر سبحانه متابعة التدبر في قول نوح، عليه السلام: {أني مغلوب فانتصر}، حسب المتضمن في آيات التنزيل على قلب نبينا الكريم، محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. القمر:11 - 17.
2. أضواء البيان:7 /476 - 477.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

بلغ عن ربه دعاء أخيه نوح عليه السلام: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ}

الحلقة الثانية

يقول الله تعالى في قرآنه الكريم:{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ* فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ}(*)

تعرضت الحلقة السابقة للتذكير بأزلية الصراع بين الحق والباطل، والناس أفراداً وجماعات يحتاجون عون الله في قضاء حاجاتهم كلها، ودفع الشر والضر عنهم، مشيرة في هذا السياق إلى تكرار طلب المسلم العون من الله، من خلال قراءة قوله تعالى في فاتحة الكتاب: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} في كل ركعة يصليها، وقد أوصى بالاستعانة بالله الأنبياء، منهم محمد وموسى، عليهما الصلاة والسلام، وأشارت الحلقة كذلك إلى حتمية انتصار الحق على الباطل، فالعبرة بالنهايات والمآلات، والمتصفح للتاريخ يلحظ أن عربدة أهل الباطل كانت تنتهي بالاندحار، وبأس أهل الحق وضيقهم كان ينتهي بالانتصار، فنوح، عليه السلام، لما دعا ربه قائلا: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} أجاب الله دعاءه، وسلط على أعدائه جند سمائه، فأنزل عليهم ماء منهمراً، أغرقهم به، ومثل السالفة من جولات الصراع بين الحق والباطل، ستكون الغلبة لله وجنده، في الجولات الحاضرة والقادمة، طال الزمن بذلك أم قصر.

---

* القمر:9 - 10.

دعاء نوح عليه السلام على قومه:

دعا نوح على قومه بعد أن أوحى الله إليه أنه لا يؤمن منهم أحد غير القليل الذي آمن، وذلك مبين في قوله تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ}[1]

وقد بين جل وعلا أن دعاء نوح فيه سؤاله الله أن يهلكهم إهلاكاً مستأصلاً، وتلك الآيات فيها بيان لقوله هنا: {فانتصر} وذلك كقوله تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً* إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً}[2]

يذكر الرازي أن ذلك النداء كان بأمر الله تعالى، لأنه لو لم يكن بأمره لم يؤمن أن يكون الصلاح أن لا يجاب إليه، فيصير ذلك سبباً لنقصان حال الأنبياء، ولأن الإقدام على أمثال هذه المطالب لو لم يكن بالأمر، لكان ذلك مبالغة في الإضرار، وقال آخرون إنه عليه السلام لم يكن مأذوناً له في ذلك.[3]

الإنجاء من الكرب العظيم:

ما تضمنته الآية الكريمة من دعاء نوح ربه جل وعلا، أن ينتصر له من قومه، فينتقم منهم، وأن الله أجابه فانتصر له منهم، فأهلكهم جميعاً بالغرق في هذا الماء المتلقى من السماء والأرض، احتفت بذكر ذلك آيات أخر من القرآن الكريم، كقوله تعالى في الأنبياء: {وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ* وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}[4]

---

1. هود: 36.
2. نوح:26 - 27.
3. التفسير الكبير، 22/16
4. الأنبياء:76 - 77.

وقوله تعالى في الصافات: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ* وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ* وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ* ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ}[1]

يبين الرازي أن نوحاً، عليه السلام، وأهله كانوا في كرب عظيم، قبل أن يسعفهم الله بالنجاة منه، والمراد بالأهل ها هنا أهل دينه، وفي تفسير الكرب وجوه:

أحدها: أنه العذاب النازل بالكفار، وهو الغرق، وهو قول أكثر المفسرين.

وثانيها: أنه تكذيب قومه إياه، وما لقي منهم من الأذى.

وثالثها: أنه مجموع الأمرين، وهو قول ابن عباس، رضي الله عنهما، وهو الأقرب؛ لأنه عليه السلام، كان قد دعاهم إلى الله تعالى مدة طويلة، وكان ينال منهم كل مكروه، وكان الغم يتزايد بسبب ذلك، وعند إعلام الله تعالى إياه أنه يغرقهم، وأمره باتخاذ الفلك، كان أيضاً على غم وخوف، من حيث لم يعلم من الذي يتخلص من الغرق، ومن الذي يغرق، فأزال الله تعالى عنه الكرب العظيم، بأن خلصه من جميع ذلك، وخلص جميع من آمن به معه.[2]

وفي سورة هود ذكر للاستجابة الربانية لدعاء نوح، عليه السلام، في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ}[3]

والنجاة من الكرب العظيم لم تقتصر على نوح، عليه السلام، وأهله، فذكر الله في قرآنه الكريم ما كان لموسى وهارون، عليهما السلام منها، فقال عز وجل: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ* وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ* وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا

1. الصافات:75 - 82.
2. التفسير الكبير، 22 /167 - 168.
3. هود:40.

هُـمُ الْغَالِبِـينَ}[1]، والمعـنى أنـه نجّـى مـوسى وهـارون وقومهمـا مـن الكـرب العظيـم، وهـو مـا كان يسـومهم فرعـون وقومـه مـن العـذاب، كذبـح الذكـور مـن أبنائهـم، وإهانـة الإنـاث، وكيفيـة إنجائـه لهـم مبيّنـة في انفـلاق البحـر لهـم، حـتى خاضـوه سـالمين، وإغـراق فرعـون وقومـه وهـم ينظـرون.[2]

راجـين اللـه العـلي القديـر أن يهدينـا لاسـتنباط خـير العـبر والعظـات مـن قصـص الغابريـن، وأن ييـسر سـبحانه متابعـة التدبـر في قـول نـوح عليـه السـلام: أني مغلـوب فانتـصر، حسـب المتضمـن في آيـات التنزيـل عـلى قلـب نبينـا الكريـم، محمـد، صـلى اللـه وسـلم عليـه، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. الصافات: 114 - 116.
2. أضواء البيان، 6 /319.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

بلغ عن ربه دعاء أخيه نوح عليه السلام: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ}

الحلقة الثالثة والأخيرة

يقول رب البرية جل في علاه: {وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً* إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً} (*)

وقفت الحلقة السابقة عند بعض أبعاد دعاء نوح، عليه السلام، ربه أن ينتصر له على قومه، بعد إدراكه أنه مغلوب بقوته البشرية، أمام جبروتهم وطغيانهم، وقد جاء هذا الدعاء بعد أن أوحى الله إليه، أنه لا يؤمن منهم أحد غير القليل الذي آمن، ودعاء نوح فيه سؤاله الله أن يهلكهم إهلاكاً مستأصلاً، كما هو واضح في الآية القرآنية المثبت نصها أعلاه من سورة نوح، والنجاة من الكرب العظيم لم تقتصر على نوح، عليه السلام، وأهله، فذكر الله نجاة موسى وهارون، عليهما السلام، وقومهما منه.

الاتعاظ من عاقبة الغابرين:

دعاء نوح، عليه السلام، ربه أن ينتصر له من قومه، وبما كان من قصة ذاك الانتصار العظيم، الذي تم فيه إغراق الظالمين بماء السماء المنهمر، الذي التقى بماء الأرض، على أمر قد قُدر، والتذكير بهذه القصة التاريخية وأمثالها في القرآن الكريم، يهدف إلى استخلاص العظات والعبر، مصداقاً لما جاء في قوله عز وجل: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ* حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ

* نوح: 26 - 27.

الْمُجْرِمِينَ* لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [1]

فالله جل في علاه يجمل في هذه الآيات الكريمة معاناة الأنبياء مع معانديهم ومناصبيهم العداء، ونهاية المطاف الذي آلت إليه الأمور بين الطرفين، حيث أسعف الله أنبياءه، عليهم السلام، بنصره المؤزر، ومما يسترعي مزيداً من الانتباه، ذكر هذه الآيات الكريمة الهدف من التذكير بقصص الأنبياء مع أقوامهم، وما آلت إليهم عاقبة الكافرين، فقال عز وجل: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ} .

يقول الرازي: اعلم أن الاعتبار عبارة عن العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، والمراد منه التأمل والتفكر، ووجه الاعتبار بقصصهم أمور:

الأول: أن الذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجب، وإعلائه بعد حبسه في السجن، وتمليكه مصر بعد أن كانوا يظنون به أنه عبد لهم، وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحب، بعد المدة الطويلة، لقادر على إعزاز محمد، صلى الله عليه وسلم، وإعلاء كلمته.

الثاني: أن الإخبار عنه جار مجرى الإخبار عن الغيب، فيكون معجزة دالة على صدق محمد، صلى الله عليه وسلم.

الثالث: أنه ذكر في أول السورة: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} [2]، ثم ذكر في آخرها: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لاوْلِي الالْبَابِ} تنبيهاً على أن حسن هذه القصة، إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة، ومعرفة الحكمة والقدرة، والمراد من قصصهم قصة يوسف، عليه السلام، وإخوته وأبيه، ومن الناس من قال: المراد قصص الرسل؛ لأنه تقدم في القرآن ذكر قصص سائر الرسل، إلا أن الأولى أن يكون المراد قصة يوسف، عليه السلام.

فإن قيل لم قال: {عِبْرَةٌ لأوْلِي الالْبَابِ} مع أن قوم محمد، صلى الله عليه وسلم، كانوا ذوي عقول وأحلام، وقد كان الكثير منهم لم يعتبر بذلك، ردَّ الرازي على

1. يوسف: 109 - 111.
2. يوسف: 3.

ذلك بأن جميعهم كانوا متمكنين من الاعتبار، والمراد من وصف هذه القصة بكونها عبرة، كونها بحيث يمكن أن يعتبر بها العاقل، أو نقول المراد من أولي الألباب، الذين اعتبروا وتفكروا وتأملوا فيها، وانتفعوا بمعرفتها؛ لأن {أُوْلِي الأَلْبَابِ} لفظ يدل على المدح والثناء، فلا يليق إلا بما ذكرناه.[1]

استيئاس الرسل، عليهم السلام

المراد من استيئاس الرسل المذكور في الآيات سالفة الذكر، يحتمل أن يكون من النصر، أو من إيمان قومهم، على اختلاف تأويل المفسرين في ذلك، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما ادعوه من النبوءة، أو فيما توعدوهم به من العذاب لما طال الإمهال، واتصلت العافية، فلما كان المرسل إليهم على هذا التأويل مكذبين، بني الفعل للمفعول في قوله: {كُذِبُواْ} هذا مشهور قول ابن عباس وابن جبير.[2]

ومن وجوه الاتعاظ من نصر الرسل، عليهم السلام، بعد أن بلغوا مرحلة استيئاس اليقين بأن نصر الله قريب، وإمهال الظالمين ينبغي أن لا يخدع أولي الألباب، فالله يمهل ولا يهمل، ويملي للظالم، فإذا قرر أن يأخذه يكون ذلك من لدن عزيز مقتدر.

هذه الحقائق الإيمانية ينبغي أن يوقن بها المؤمنون، حتى وقلوبهم تبلغ الحناجر من قسوة المحن، ومخاطر الاقتلاع والاجتثاث، فالله غالب على أمره، ونصر الله لعباده قريب، وبشر المؤمنين.

راجين الله العلي القدير أن يهدينا لأخذ خير العبر والعظات من قصص الغابرين، ومن ذلك هلاك قوم نوح، عليه السلام، والذي أوقعه الله بهم؛ استجابة لدعاء نبيه نوح، عليه السلام: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} حسب المتضمن في آيات التنزيل على قلب نبينا الكريم محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. التفسير الكبير، 18 /181 - 182.
2. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 3 /288.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

ولد يتيماً فآواه الله، ونهاه عن قهر اليتيم

في سورة الضحى خطاب كريم من رب البرية لنبيه المصطفى، صلى الله عليه وسلم، جاء فيه: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى* وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى* فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ* وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ* وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}(*)

يُذكّر الله عز وجل في سورة الضحى نبيه محمداً، صلى الله عليه وسلم، ببعض آلائه عليه، حيث كان منه سبحانه الإيواء لنبيه، عليه الصلاة والسلام، بعد أن وجده يتيماً، وهداه من الضلال، وأغناه بعد العيلة، وفي مقابل هذه النعم البارزة، أمر الله نبيه، صلى الله عليه وسلم، بأن لا يقهر اليتيم، ولا ينهر السائل، وأن يحدث بنعم الله عليه.

ولادته يتيماً ونهيه عن قهر اليتيم

في يُتم النبي، صلى الله عليه وسلم، نظمت الأبيات الشعرية الآتية:

ولّى أبوك عن الدنيا ولم تره ... وأنت مرتهن لا زِلْتَ في الرحِمِ
وماتت الأم لمّا أنْ أنِسْتَ بها ... ولم تكن حين ولَّت بالغ الحُلمِ
ومات جدك من بعد الولوع به ... فكنتَ من بعدهم في ذروة اليُتمِ
فجاء عمك حِصْناً تستكن به ... فاختاره الموت والأعداء في الأُجُمِ

وبإيوائه صلى الله عليه وسلم، بعد يتمه، ونهيه في المقابل عن قهر اليتيم، ذكرته والمسلمين من بعده سورة الضحى، المثبت عدد من آياتها أعلاه، ومما جاء في التسهيل لعلوم التنزيل بالخصوص، أن الله عدد نعمه عليه فيما مضى من عمره، ليقيس عليه ما يستقبل فتطيب نفسه، ويقوى رجاءه.

* الضحى:6 - 11.

و(وجـد) في هـذه المواضـع تتعـدى إلى مفعولـين، وهـي بمعـنى علـم، فالمعـنى ألـم تكـن يتيمـاً فـآواك، وذلـك أن والـده، عليـه السـلام، تـوفي وتركـه في بطـن أمـه، ثـم ماتـت أمـه، وهـو ابـن خمسـة أعـوام، وقيـل ثمانيـة، فكفلـه جـده عبـد المطلـب، ثـم مـات وتركـه ابـن اثـني عـشر عامـاً، فكفلـه عمـه أبـو طالـب، وقيـل لجعفـر الصـادق: لِـمَ نشـأ النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يتيمـاً؟ فقـال: لئـلا يكـون عليـه حـق لمخلـوق، وفي قولـه تعالى:{ووجـدك ضـالاً فهـدى} سـتة أقـوال، أظهرهـا: وجـدك ضـالاً عـن معرفـة الشريعـة، فهـداك إليهـا، فالضـلال عبـارة عـن التوقيـف في أمـر الديـن، حـتى جـاءه الحـق مـن عنـد اللـه، فهـو كقوله:{وَكَذَلِـكَ أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ رُوحـاً مِّـنْ أَمْرِنَـا مَـا كُنـتَ تَـدْرِي مَـا الْكِتَـابُ وَلَا الْإِيمَـانُ وَلَكِـن جَعَلْنَـاهُ نُـوراً نَهْـدِي بِـهِ مَـنْ نَّشَـاء مِـنْ عِبَادِنَـا وَإِنَّـكَ لَتَهْـدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ}[1]

والعائـل في قولـه تعالى:{ووجـدك عائـلاً فأغـنى} هـو الفقـير، يقـال: عـال الرجـل فهـو عائـل، إذا كان محتاجـاً، وأعـال فهـو معيـل، إذا كـثر عيالـه، وهـذا الفقـر والغـنى هـو في المـال، وغنـاؤه صـلى اللـه عليـه وسـلم، هـو أن أعطـاه اللـه الكفـاف، وقيـل: هـو رضـاه بمـا أعطـاه اللـه، وقيـل: المعـنى وجـدك فقـيراً إليـه، فأغنـاك بـه.

والمـراد بالنهـي عـن قهـر اليتيـم، أي لا تغلبـه عـلى مالـه وحقـه لأجـل ضعفـه، أو لا تقهـره بالمنـع مـن مصالحـه، ووجـوه القهـر كثـيرة، والنهـي يعـم جميعهـا، والنهـر في قولـه تعـالى: {وأمـا السـائل فـلا تنهـر} هـو الانتهـار والزجـر، والنهـي عنـه، أمـر بالقـول الحسـن، والدعـاء للسـائل، كمـا قـال تعالى:{وَإِمَّـا تُعْرِضَـنَّ عَنْهُـمُ ابْتِغَـاء رَحْمَـةٍ مِّـن رَّبِّـكَ تَرْجُوهَـا فَقُـل لَّهُـمْ قَـوْلاً مَّيْسُـوراً}[2]

ويحتمـل السـائل أن يريـد بـه سـائل الطعـام والمـال، وهـذا هـو الأظهـر، والسـائل عـن العلـم والديـن، وفي قوله:{تقهـر وتنهـر} لـزوم مـا لا يلـزم، مـن الـتزام الهـاء قبـل الـراء. ومعـنى قولـه تعالى:{وأمـا بنعمـة ربـك فحـدث} قيـل: معنـاه بـث القـرآن، وبلـغ الرسـالة، والصحيـح أنـه عمـوم في جميـع النعـم.

1. الشورى:52.
2. الإسراء:28.

ولذلك كان بعض السلف يقول: لقد أعطاني الله كذا، ولقد صليت البارحة كذا، وهذا إنما يجوز إذا كان على وجه الشكر، أو ليقتدى به، فأما على وجه الفخر والرياء فلا يجوز.

وانظر كيف ذكر الله في هذه السورة ثلاث نعم، ثم ذكر في مقابلتها ثلاث وصايا، فقابل قوله:{ألم يجدك يتيماً} بقوله:{فأما اليتيم فلا تقهر} وقابل قوله:{ووجدك ضالاً} بقوله:{وأما السائل فلا تنهر} على قول من قال: إنه السائل عن العلم، وقابله بقوله:{وأما بنعمة ربك فحدث} على القول الآخر، وقابل قوله:{ووجدك عائلاً فأغنى} بقوله:{وأما السائل فلا تنهر} على القول الأظهر، وقابله بقوله:{وأما بنعمة ربك فحدث} على القول الآخر.[1]

مرافقة كافل اليتيم في الجنة:

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، الذي ولد يتيماً، ونُهيَ عن قهر اليتيم، وعد كافل اليتيم بمرافقته في الجنة، فعن سَهْلٍ، قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم:(وأنا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئاً)[2]

مما يشير بوضوح إلى العناية الفائقة بالحث على رعاية اليتامى، والإحسان إليهم، فيكفي من يقوم بذلك فخراً وعزاً وسعادة، أن يحظى بمرافقة خاتم النبيين، صلى الله عليه وسلم، في الجنة.

فهذه وقفة متواضعة عند بعض الأبعاد والمحاور ذات الصلة بولادته صلى الله عليه وسلم، يتيماً، وإيوائه من ربه عز وجل، ونهيه عن قهر اليتيم، والمتضمن بعضها في ثنايا سورة الضحى، عسى أن ينفع التذكير بذلك في تحقق رجاء الاهتداء إلى حسن الاقتداء والتأسي بنبينا محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. التسهيل لعلوم التنزيل:4/ 204 - 205، بتصرف.
2. صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب اللعان

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

ينتصر له الله وجبريل وصالح المؤمنين وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ

يقول الله عز وجل في محكم التنزيل:{إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ}(*) الوعيد في هذه الآية الكريمة موجه إلى امرأتين من أزواج النبي، صلى الله عليه وسلم، لكن معلوم أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فالله وجبريل وصالح المؤمنين ينتصرون للنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ممن يسيئون إليه أو يؤذونه، حيث وجدوا في كل زمان ومكان، والملائكة بعد ذلك ظهير.

الانتصار للنبي، صلى الله عليه وسلم، في الظروف كلها:

جرائم الاستهزاء بالنبي، صلى الله عليه وسلم، تستثير غضب المؤمنين برسالته ومحبيه في أنحاء المعمورة، وما ذاك منهم إلا تحقيقاً لوعيده عز وجل في الآية القرآنية الكريمة أعلاه من سورة التحريم، جاء في التسهيل لعلوم التنزيل، أن قوله تعالى: {إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...} خطاب لعائشة وحفصة، رضي الله عنهما، وتوبتهما مما جرى منهما في قصة تحريم الجارية، أو العسل، ومعنى صغت أي مالت عن الصواب، وقرأ ابن مسعود: زاغت، والمعنى إن تتوبا إلى الله فقد صدر منكما ما يوجب التوبة، {وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ} المعنى إن تعاونتما عليه صلى الله عليه وسلم، بما يسوؤه، من إفراط الغيرة، وإفشاء سره، ونحو ذلك، فإن له من ينصره، ومولاه

* التحريم: 4.

هنا يحتمل أن يكون بمعنى السيد الأعظم، فيوقف على مولاه، ويكون جبريل مبتدأ، وظهير خبره، وخبر ما عطف عليه، ويحتمل أن يكون المولى هنا بمعنى الولي الناصر، فيكون جبريل معطوفاً، فيوصل مع ما قبله، ويوقف على صالح المؤمنين، ويكون الملائكة مبتدأ، أو ظهير خبره، وهذا أظهر وأرجح لوجهين:

أحدهما: أن معنى الناصر أليق بهذا الموضع، فإن ذلك كرامة للنبي، صلى الله عليه وسلم، وتشريف له، وأما إذا كان بمعنى السيد، فذلك يشترك فيه النبي، صلى الله عليه وسلم، مع غيره؛ لأن الله تعالى مولى جميع خلقه بهذا المعنى، فليس في ذلك إظهار مزية له.

والوجه الثاني: أنه ورد في الحديث الصحيح، أنه لما وقع ذلك جاء عمر إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا رَسُولَ اللَّهِ، ما يَشُقُّ عَلَيْكَ من شَأْنِ النِّسَاءِ، فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ، فإن اللَّهَ مَعَكَ، وَمَلَائِكَتَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، وأنا وأبو بَكْرٍ، وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ...)[1]

واختلف في (صالح) هل هو مفرد، أو جمع محذوف النون للإضافة، فعلى القول بأنه مفرد هو أبو بكر، وقيل: علي بن أبي طالب، وعلى القول بأنه جمع، فهو على العموم في كل صالح.[2]

وينسب أبو السعود في تفسيره إلى ابن عباس، رضي تعالى عنهما، أن المراد بـ(صالح المؤمنين) أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما، وبه قال عكرمة ومقاتل، ويقول: هو اللائق بتوسطه بين جبريل والملائكة، عليهم السلام، فإنه جمع بين الظهير المعنوي، والظهير الصوري، كيف لا؟ وإن جبريل ومكيائيل ظهيران له، عليهما السلام، يؤيدانه بالتأييدات

1. صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء...
2. التسهيل لعلوم التنزيل، 4 /131 - 132 بتصرف.

الإلهيـة، وهمـا وزيـراه وظهـيراه في تدبـير أمـور الرسـالة، وتمشـية أحكامهـا الظاهـرة، ولأن بيـان مظاهرتهمـا لـه عليـه الصـلاة والسـلام، أشـد تأثـيراً في قلـوب بنتيهما-عائشـة وحفصـة- وتوهينـا لأمرهمـا، فـكان حقيقـاً بالتقديـم، بخـلاف مـا إذا أريـد بـه جنـس الصالحـين، كمـا هـو المشـهور.[1]

فنـصرة النـبي محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، مـن اللـه وجبريـل وصالـح المؤمنـين، هـي وعـد إلهـي أزلي، وبـاق إلى يـوم الديـن، لا مندوحـة عنـه، وهـو القائـل سـبحانه: {وَعْـدَ اللَّـهِ لَا يُخْلِـفُ اللَّـهُ وَعْـدَهُ وَلَكِـنَّ أَكْـثَرَ النَّـاسِ لَا يَعْلَمُـونَ}[2]

والملائكة بعد ذلك ظهير:

الوعـد الإلهـي بنـصرة النـبي محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، لـم يقتصر عـلى موالاته، صـلى اللـه عليـه وسـلم، مـن اللـه، والملـك جبريـل عليـه السـلام، وصالـح المؤمنـين، حسـب مـا ذكـر في صـدر الآيـة الكريمـة، بدليـل قولـه تعـالى: {وَالْمَلَائِكَـةُ بَعْـدَ ذَلِـكَ ظَهِـيرٌ}.

قـال مقاتـل: بعـد اللـه وجبريـل وصالـح المؤمنـين الملائكـة ظهـير، أي أعـوان للنـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وهـذا مـن الواحـد الذي يـؤدي عـن الجمـع، كقولـه تعـالى: {...وَحَسُـنَ أُولَـئِكَ رَفِيقـاً}[3]، [4]

يقـول الطـبري: والملائكـة مـع جبريـل وصالـح المؤمنـين لرسـول اللـه، صـلى اللـه عليه وسـلم، أعـوان عـلى مـن آذاه، وأراد مسـاءته. والظهـير في هـذا الموضـع بلفـظ واحـد في معـنى جمـع، ولـو أخـرج بلفـظ الجميـع لقيـل: (والملائكـة بعـد ذلـك ظهـراء).[5]

1. تفسير أبي السعود، 8/ 267.
2. الروم:6.
3. النساء:69.
4. تفسير البغوي، 4 /366.
5. تفسير الطبري 28/ 163.

فالآيـة الكريمـة أعـلاه طمأنـت المؤمنـين في زمن النـبي، صلى اللـه عليه وسـلم، ولا تزال تطمـئن المسـلمين حـتى تقـوم السـاعة، بمـا أعد الله مـن نصرة لنبيهـم، صلى الله عليه وسـلم، وتخيـب المسـتهزئين والمسـيئين، ومتربـصي الدوائـر بالإسـلام والمسـلمين، فهـم وكيدهـم إلى بـوار، فالله وجبريـل وصالـح المؤمنـين أعـوان للرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، ومظاهـرون لـه، ومـن كان هـؤلاء أنصـاره فهـو المنصـور، وغـيره إن يناوئـه فهـو مخـذول، كيـف لا؟! وقـد جعـل اللـه نفسـه الكريمـة وخـواص خلقـه أعوانـاً لهـذا الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم.[1]

ممـا يعـني التحذير الشـديد لمـن يحاولون الإسـاءة للنبي، صـلى الله عليه وسـلم، مهما بلغـت بهـم الوقاحة والصلافـة وقبح التصرف، وإن غداً لناظـره قريب {وَانْتَظِرُوا إِنَّـا مُنْتَظِرُونَ}[2]

أعاننـا اللـه والمسـلمين كافـة عـلى نيـل شرف ومثوبـة القيـام بواجـب نـصرة نبينـا، صـلى اللـه وسـلم عليـه، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وعـلى أصحابـه الغـر الميامـين، وعـلى مـن تبعـه ووالاه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. تفسير السعدي: 1 /873 بتصرف.

2. هود: 122.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

بشره ربه بهزيمة جمع أعدائه وأنهم سيولون الدبر

الحلقة الأولى

عـن ابـن عَبَّـاسٍ، قـال: قـال النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يـوم بَـدْرٍ: (اللَّهُـمَّ إِنِّي أَنْشُـدُكَ عَهْـدَكَ وَوَعْـدَكَ، اللَّهُـمَّ إِنْ شِـئْتَ لَـمْ تُعْبَـدْ بَعْـدَ اليَـوْمِ، فَأَخَـذَ أَبُـو بَكْـرٍ بِيَـدِهِ، فَقَـالَ: حَسْـبُكَ يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ، فَقَـدْ أَلْحَحْـتَ عَـلَى رَبِّـكَ وَهُـوَ فِي الـدِّرْعِ، فَخَـرَجَ وَهُـوَ يَقُـولُ: {سَـيُهْزَمُ الجَمْـعُ، وَيُوَلُّـونَ الدُّبُـرَ بَـلِ السَّـاعَةُ مَوْعِدُهُـمْ، وَالسَّـاعَةُ أَدْهَـى وَأَمَـرُّ})[1]

يعـبر الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، عـن يقينـه وثقتـه بنـصر اللـه لـه وللإسـلام والمسـلمين، عـلى الرغـم ممـا كانـوا فيـه مـن شـدة وبـلاء وحصـار صعـب، وضيـق خنـاق، فدعـا ربـه أن ينجـز لـه عهـده ووعـده بالنـصر والتمكـين، مذيـلاً دعـاءه بمـا يؤكـد يقينـه وثقتـه بتغـير الحـال بينـه وبـين أعدائـه، لصالحـه ودينـه، وهزيمتهـم، فاللـه جـل في عـلاه طمـأن الرسـول محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، والثلـة المؤمنـة معـه، ووعدهـم وبشرهـم بـأن عنجهيـة أعدائهـم الذيـن ناصبوهـم العـداء سـتنتهي إلى خيبـة، تتمثـل في هزيمتهـم وتوليتهـم الدبـر متقهقريـن، قـال سـبحانه في خواتيـم سـورة القمر:{سَـيُهْزَمُ الْجَمْـعُ وَيُوَلُّـونَ الدُّبُـرَ}[2]

جمع الضلال وتحقق هزيمته:

المقصـود بالجمـع المشـار إليهـم في الآيـة القرآنيـة الكريمـة أعـلاه مـن سـورة القمـر، هـم كفـار قريـش وصناديدهـا، فقـد جـاء في التسـهيل لعلـوم التنزيـل، أن هـذا وعـد مـن اللـه لرسـوله، صـلى اللـه عليـه وسـلم، بأنـه سـيهزم جمـع قريـش، وقـد ظهـر ذلـك يـوم بـدر وفتـح مكـة.[3]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي، صلى الله عليه وسلم، والقميص في الحرب.
2. القمر:45.
3. التسهيل لعلوم التنزيل:4/ 82.

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (أنشدك) أي أطلبك، يقال: نشدتك الله، أي سألتك بالله، كأنك ذكرته، وقوله:(عهدك) نحو قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ*إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ* وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}[1].

وقوله: (ووعدك) نحو قوله تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ...}[2]

وقوله: (حسبك) أي يكفيك ما قلت.[3]

عن عُمَر بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، قال: (لَمَّا كان يَوْمُ بَدْرٍ... نَظَرَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم ، إلى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثلاث مائة وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم ، الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللهم أَنْجِزْ لِي ما وَعَدْتَنِي، اللهم آتِ ما وَعَدْتَنِي، اللهم إن تُهْلِكْ هذه الْعِصَابَةَ من أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ في الأرض، فما زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حتى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عن مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أبو بَكْرٍ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ على مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ من وَرَائِهِ، وقال: يا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ الله عز وجل: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ من الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} فَأَمَدَّهُ الله بِالْمَلَائِكَةِ)[4]

قال الخطابي: قد يشكل معنى هذا الحديث على كثير من الناس؛ وذلك إذا رأوا نبي الله يناشد ربه في استنجاز الوعد، وأبو بكر، رضي الله تعالى عنه، يُسكِنُ منه، فيتوهمون أن حال أبي بكر بالثقة بربه والطمأنينة إلى وعده أرفع من حاله، وهذا لا يجوز قطعاً، فالمعنى في مناشدته وإلحاحه في الدعاء، الشفقة على قلوب أصحابه، وتقويتهم إذ كان ذلك أول مشهد شهدوه في لقاء العدو، وكانوا في قلة من العَدد والعُدد، فابتهل في الدعاء وألح؛ ليسكن ذلك ما في نفوسهم إذا كانوا يعلمون أن وسيلته مقبولة، ودعوته مستجابة، فلما قال له أبو بكر مقالته، كف عن الدعاء، إذ علم أنه استجيب له بما وجده أبو بكر في نفسه من القوة والطمأنينة، حتى قال له هذا القول، ويدل على

1. الصافات:171 - 173
2. الأنفال:7.
3. عمدة القاري:14/ 193.
4. صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم

صحة ما تأولناه، تمثله على أثر ذلك بقوله:{سيهزم الجمع ويولون الدبر} وفيه تأنيس من استبطأ كريم ما وعده الله به، من النصر والبشرى لهم بهزم حزب الشيطان، وتذكيرهم بما نبههم به من كتابه عز وجل، والمراد من الجمع جمع كفار مكة يوم بدر، فأخبر الله تعالى أنهم سيهزمون، ويولون الدبر؛ أي الإدبار، فوحدوا لمراد الجمع[1]

الاعتبار من هزيمة جمع الضلال:

هزيمة جمع كفار قريش وأشياعهم من أعداء الأنبياء السابقين، عليهم السلام، تبشر بهزيمة جموع الضلال، وأحزاب الغي في الزمان كله، فقوله تعالى:{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} لا يقتصر على حادثة تاريخية وقعت في زمن النبوة وحسب، وإنما هو وعد للأوغاد بالطامة والهزيمة، وإن جريان ظواهر الأمور لصالحهم في حقب زمانية عابرة، ينبغي أن لا يخدع بصير، إذ العبرة بالعواقب والخواتيم، فجمع قريش قبل هزيمتهم، تمادوا في الغي والعنجهية والصلف، حتى جاءهم أمر الله الموعود، فكانت هزيمتهم مزلزلة، وانقلب على إثرها المشهد، وأعداء الإسلام اليوم سيأتيهم يوم يندمون فيه عما اقترفوا من جرائم ضده، مصداقاً لقوله عز وجل:{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً}[2]، وإذا ما استذكر المؤمنون هذه الحقيقة العقائدية بيقين وثقة، فإنهم يبقون يرقبون نصر الله لهم، حتى وهم يواجهون أصعب المواقف وأعتاها، فإنما النصر صبر ساعة، وإن ينصرهم الله فلا غالب لهم، وإنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً، وإن غداً لناظره قريب.

آملين التمكن في الحلقة القادمة من متابعة الحديث عن البشارة الربانية بهزيمة جموع الضالين، وأنهم سيولون الدبر، طال الزمان أو قصر، ونسأله سبحانه أن يرزقنا اليقين بنصره، والثقة بوفاء عهده لنا ووعده، كما كان منه سبحانه لنبينا، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. عمدة القاري:14 /193.
2. الفرقان:27.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه سلم

بشره ربه بهزيمة جمع أعدائه وأنهم سيولون الدبر

الحلقة الثانية والأخيرة

في آيات التنزيل التي تلقاها النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، من رب العالمين، قوله عز وجل:{أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ* سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ* بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ}[1]

هذه الآيات الثلاث من سورة القمر، تضمنت تحذيراً وتهديداً لحاملي لواء جمع الضلال، المعتزين به، وكأنهم يرتكزون إلى ركن عظيم، فالله جل في علاه توعد جمعهم بالهزيمة، وأنهم سيولون الدبر متقهقرين، ومن وراء ذلك أيضاً وعيد لهم بالساعة التي ستكون وبالاً عليهم، وأشد بكثير مما وجدوه في الدنيا من خيبة الهزيمة وتولية الدبر.

يبين الزمخشري في الكشاف، أن معنى قولهم:{نَحْنُ جَمِيعٌ} أي جماعة، أمرنا مجتمع، وقولهم:{مُّنتَصِرٌ} أي ممتنع، لا نرام ولا نضام، وعن أبي جهل، أنه ضرب فرسه يوم بدر، فتقدَّم في الصف، وقال: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه، فنزلت:{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ} {وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} أي الأدبار، {أَدْهَى} أشدّ وأفظع، والداهية الأمر المنكر، الذي لا يهتدى لدوائه، {وَأَمَرُّ} من الهزيمة والقتل والأسر.[2]

خلاصة الحلقة السابقة:

تصدر الحلقة السابقة حديث أخرجه البخاري في صحيحه، عبر فيه الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن يقينه وثقته بنصر الله له وللإسلام والمسلمين، على الرغم مما كانوا فيه من شدة وبلاء وحصار صعب، وضيق خناق، فدعا ربه أن ينجز له عهده ووعده

1. القمر:44 - 46.
2. الكشاف:4/ 439 - 440.

لـه بالنـصر والتمكـين، مذيـلاً دعـاءه بمـا يؤكـد يقينـه وثقتـه بتغـير الحـال لصالحـه ودينـه، وهزيمـة أعدائـه، فالله جـل في عـلاه طمأنـه والثلـة المؤمنـة معـه، إلى أن عنجهيـة أعدائهـم الذيـن ناصبوهـم العـداء سـتنتهي إلى خيبـة، تتمثـل في هزيمتهـم وتوليتهـم الدبـر متقهقريـن، وذكـرت الحلقـة أن المقصـود بالجمـع المشـار إليهـم في قولـه {سَـيُهْزَمُ الْجَمْـعُ وَيُوَلُّـونَ الدُّبُـرَ}[1]، هـم كفـار قريـش وصناديدهـا، وأن هزيمـة ذاك الجمـع وأشـياعهم مـن أعـداء الأنبيـاء السـابقين، عليهـم السـلام، تبـشر بهزيمـة جمـوع الضـلال، وأحـزاب الغـي في الزمـان كلـه، فجمـع قريـش قبـل هزيمتهـم، تمـادوا في الغـي والعنجهيـة والصلـف، حـتى جاءهـم أمـر الله الموعـود، فكانـت هزيمتهـم مزلزلـة، وانقلـب عـلى إثرهـا المشـهد، وأعـداء الإسـلام اليـوم سـيأتيهم يـوم يندمـون فيـه عمـا اقترفـوا مـن جرائـم ضـده، ومـا ذلك عـلى الله بعزيز.

صلة الوعد بهزيمة الجمع بما سبق من آيات سورة القمر:

جـاء الوعـد بهـزم الجمـع وتوليتهـم الدبـر في خواتيـم سـورة القمـر، بعـد عـرض معظـم محاورهـا الـتي تضافـرت عـلى تأكيـد حقيقـة القـدرة الربانيـة عـلى إحـداث التغيـير للأحـوال، بلغـت شـدتها مـا بلغـت، والانتصـار لأنبيائـه ودينـه، وهـزم الطغـاة والجبارين، فهـو سـبحانه عـلى كل شيء قديـر، فقبـل ختـم السـورة بخمـس آيـات قـال سـبحانه:{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـاهُ بِقَـدَرٍ}[2] جـاء في تفسـير السـعدي، أن هـذا شـامل للمخلوقـات والعوالـم العلويـة والسـفلية، إن الله تعـالى وحـده خلقهـا، لا خالـق لهـا سـواه، ولا مشـاركة في خلقـه، وخلقهـا بقضـاء سـبق بـه علمـه، وجـرى بـه قلمـه، بوقتهـا ومقدارهـا، وجميـع مـا اشـتملت عليـه مـن الأوصـاف، وذلـك عـلى الله يسـير، فلهـذا قـال تعـالى: {وَمَـا أَمْرُنَـا إِلَّا وَاحِـدَةٌ كَلَمْـحٍ بِالْبَصَرِ}[3] فإذا أراد شـيئاً قال له كن، فيكون كما أراد، كلمح البصر، من غير ممانعة ولا صعوبة.[4]

---

1. القمر:45.
2. القمر:49.
3. القمر:50.
4. تفسير السعدي:1 /828.

جاءت هذه التأكيدات الربانية لهذه المعاني الإيمانية بعد آيات تضمنت صوراً من صلف وعناد ولؤم بعض الأمم مع أنبيائهم، مع التركيز على نهايات الظالمين، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، وتكرر ذكر قوله تعالى في ثناياها:{فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ* وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} بتصوير قرآني بليغ ومؤثر، وقبل ختم آيات سورة القمر بمحاورها المتناسقة، عقب سبحانه بقوله:{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} فالهلاك للطغاة والظالمين آت لا محالة، ومما يلفت الانتباه أن التعقيب المستثير والمحفز على الاعتبار والتدبر، بالتساؤل:{فهل من مدكر} تكرر في الآيات الأربع التي تقرر فيها أن الله يسر القرآن للذكر، حيث تكرر قوله تعالى:{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} في الآيات: 17و22، و32 و40 من سورة القمر.

وقبيل ختم السورة ذات الآيات الخمس وخمسين، جاء التعقيب نفسه المستثير والمحفز على الاعتبار والتدبر، بالتساؤل:{فهل من مدكر} لكن في آية ذكّرت بإهلاك أمثال المعاندين لمحمد، صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}، مما يعزز الإيمان بقدرة الله سبحانه وتعالى على تغيير الأحوال، مهما اشتد ظلام ليلها.

حقيقة إيمانية راسخة:

من منطلق أن دوام الحال من المحال، وظلام الليل سيعقبه بزوغ نور الفجر، وأن الأيام يداولها الله بين الناس، فإن إيماننا راسخ بأن جبروت الظالمين، إلى زوال واندحار، طال الزمن بهم أم قصر، وإننا وأمثالنا ممن يعانون من المتزملين بجمعهم وصلفهم وآلات بطشهم، على يقين بحتمية تغير أحوالنا لنصبح الأعلى، ويتحقق لنا وعد ربنا بالاستخلاف والتمكين، وتبديل حالنا من الخوف إلى الأمن، مصداقاً لقوله عز

وجل:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[1] ويتحقق بنا كذلك وعد رسولنا، صلى الله عليه وسلم، بقوله:(لَا يَزَالُ من أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ من خَذَلَهُمْ، ولا من خَالَفَهُمْ، حتى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ على ذلك)[2]

سائلين الله العلي القدير، أن يحقق بشارته بهزيمة جمع الضالين، وتوليتهم الدبر، كما حققها لحبيبه محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

1. النور:55.

2. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب منه.

الفصل الخامس /المسرى

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	يجـذب عيـون المسـلمين وقلوبهـم وعقولهـم وأبدانهـم إلى مـسراه - الحلقـة الأولى	127
.2	يجـذب عيـون المسـلمين وقلوبهـم وعقولهـم وأبدانهـم إلى مـسراه - الحلقـة الثانيـة والأخـيرة	130

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يجذب عيون المسلمين وقلوبهم وعقولهم وأبدانهم إلى مسراه

الحلقة الأولى

عـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، عـن النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (لا تُشَـدُّ الرِّحَـالُ إلا إلى ثَلاثَـةِ مَسَـاجِدَ؛ المَسْـجِدِ الحَـرَامِ، وَمَسْـجِدِ الرَّسُـولِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وَمَسْـجِدِ الأَقْـصَى) (*)

الاهتمـام بالمسـجد الأقـصى المبـارك متجـذر في ديـن الإسـلام وأصولـه وتاريخـه وواقعـه، فليـس بالأمـر العـارض ولا المبتـدع، فمنـذ عهـد النبـوة تجلـت العنايـة الإلهيـة بـه، ولُفتـت الأنظـار إليـه، ولـم يكـن ربطـه بالمسـجدين الحـرام في مكـة المكرمـة، والنبـوي في المدينـة المنـورة، ارتباطـاً سـطحياً ولا عابـراً، ولا محـض صدفـة، فهمـا عـلى مـا يشـكلانه في الإسـلام، ضـم إليهمـا بمشـاركة تخـص التعبـد والوجـود والتحالـف والمصـير.

الأول المسـجد الأول الـذي وضـع في الأرض لعبـادة رب البريـة سـبحانه، وهـو حاضـن الكعبـة المشرفـة، وقبلـة المسـلمين في صلاتهـم، ومحجهـم، والملتقـى الأول بـين وحـي اللـه، ونـبي الإسـلام، وخاتـم النبيـين محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم.

والمسـجد النبـوي مـأوى الرعيـل الأول، ممـن صدقـوا اللـه وصدقهـم، ومدرسـة الدعـوة المباركـة للعالمـين، ومركـز دولتهـم الأولى، ومنطلـق انتصـارات الإسـلام والمسـلمين، فمنـه كانـت تنطلـق الجيـوش، وفيـه تعقـد اللقـاءات السياسـية والدعويـة والتعليميـة والتربويـة، ومجالـس القضـاء، وفي جنباتـه كان يسـكن النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، ويعيـش ويمـارس حياتـه، وفيهـا قـبره الشريـف، إضافـة إلى قـبري صاحبيـه أبي بكـر الصديـق، وعمـر بـن الخطـاب، رضي اللـه عنهمـا وأرضاهمـا.

* صحيح البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

أما الثالث فمسرى النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، من المسجد الحرام في مكة المكرمة، ومنطلق معراجه إلى السماء، وهو قبلة المسلمين الأولى، التي كانوا يتوجهون إليها في صلاتهم لربهم في بداية عهدهم بفرض الصلاة، وهو ثاني مسجد وضع في الأرض بعد المسجد الحرام، لعبادة الله في الأرض، فهذا المجمل لخصائص هذه المساجد الثلاثة، يدل على عظمتها وأهميتها في الإسلام.

شد الرحال إلى المسجد الأقصى المبارك:

المسجد الأقصى المبارك إضافة إلى تمتعه بخصائص أصيلة، فإنه يتمتع بميزات مستقاة من تشاركه مع صنويه، المسجدين الحرام والنبوي، ففي الحديث الشريف أعلاه يحصر النبي، صلى الله عليه وسلم، مشروعية شد الرحال إلى مساجد بعينها طلباً للمثوبة، والفضل في المساجد الثلاثة، الحرام والنبوي والأقصى، ويعني هذا من بين ما يعنيه أن المسجد الأقصى يتقاطع مع المسجدين الآخرين في الأهمية الدينية والتعبدية، وأنه مرتبط بهما ارتباط تعبد، فهو وإلى يوم الدين، أحد المساجد الثلاثة التي ينحصر تشريع شد الرحال إليها على وجه البسيطة، دون سواها من المساجد، صغيرها وكبيرها، ودائماً وأبداً يطرح التساؤل المشروع، لم هذا الحصر لشد الرحال؟ ولم هذه المساجد دون سواها؟ وأول ما ينبغي استبعاده حين التفكير بالإجابة عن هذين التساؤلين، هو الصدفة، فما كان لهذا الحصر الحاسم أن يكون دون قصد وهدف، وهو أمر تشريعي وتعبدي، صادر عن نبي، صلى الله عليه وسلم، لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وبعد نفي الصدفة يبقى المجال رحباً للتأمل في مرامي هذا الحصر وأبعاده، وأهمية هذه المساجد وتميزها عما سواها من المساجد، ويرى النووي أن في هذا الحديث فضيلة هذه المساجد الثلاثة، وفضيلة شد الرحال إليها؛ لأن معناه عند جمهور العلماء لا فضيلة في شد الرحال إلى مسجد غيرها.[*]

* صحيح مسلم بشرح النووي: 9/ 168.

حكم شد الرحال إلى غير هذه المساجد الثلاثة:

قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تُشَدُّ الرحال) نفي بمعنى النهي، وشد الرحال كناية عن السفر، والمعنى لا ينبغي شد الرحال والسفر من بين المساجد إلا إلى ثلاثة مساجد، وأما السفر للعلم وزيارة العلماء والصلحاء وللتجارة، ونحو ذلك، فغير داخل في حيز المنع، وكذا زيارة المساجد الأخر بلا سفر، كزيارة مسجد قباء لأهل المدينة، غير داخل في حيز النهي، والله تعالى أعلم.[1]

وفي فتح الباري أن معنى (لا تُشَدُّ) النهي عن السفر إلى غيرها، قال الطيبي: هو أبلغ من صريح النهي، كأنه قال: لا يستقيم أن يقصد بالزيارة إلا هذه البقاع؛ لاختصاصها بما اختصت به، والرحال جمع رحل، وهو للبعير كالسرج للفرس، وكنى بشد الرحال عن السفر؛ لأنه لازمه، وخرج ذكرها مخرج الغالب في ركوب المسافر، وإلا فلا فرق بين ركوب الرواحل والخيل والبغال والحمير والمشي في المعنى المذكور.

وقوله: (إلا) التقدير لا تشد الرحال إلى موضع، ولازمه منع السفر إلى كل موضع غيرها.[2]

ويرى بعض العلماء أن هذا الحديث إنما هو فيمن نذر على نفسه الصلاة في مسجد من سائر المساجد غير الثلاثة المذكورة، قال مالك رحمه الله: من نذر صلاة في مسجد لا يصل إليه إلا براحلة، فإنه يصلي في بلده، إلا أن ينذر ذلك في مسجد مكة، أو المدينة، أو بيت المقدس، فعليه السير إليها.[3]

عسى أن ييسر الله التمكن من متابعة الحديث عن ملامح جذب عيون المسلمين وقلوبهم وعقولهم وأبدانهم للمسرى، حسب ما جاء في الآيات القرآنية الكريمة، وأحاديث وسنة النبي محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. حاشية السندي على سنن النسائي: 2 /37.
2. فتح الباري: 3 /64.
3. عمدة القاري:7 /253.

الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم

يجذب عيون المسلمين وقلوبهم وعقولهم وأبدانهم إلى مسراه

الحلقة الثانية والأخيرة

عـن أبي ذَرٍّ، قال:(قلـت: يـا رَسُـولَ اللَّـهِ؛ أَيُّ مَسْـجِدٍ وُضِـعَ فِي الأرض أَوَّلُ؟ قال: الْمَسْـجِدُ الْحَـرَامُ، قلـت: ثُـمَّ أَيٌّ؟ قـال: الْمَسْـجِدُ الأَقْـصَى، قلـت: كَـمْ بَيْنَهُمَـا؟ قـال: أَرْبَعُـونَ سَـنَةً، وَأَيْنَمَـا أَدْرَكَتْـكَ الصَّـلاةُ فَصَـلِّ، فَهُـوَ مَسْـجِدٌ)[*].

عرضـت الحلقـة السـابقة التذكـير بمسـوغات الاهتمـام بالمسـجد الأقـصى المبـارك، انطلاقـاً مـن ديـن الإسـلام وأصولـه وتاريخـه وواقعـه، وبخاصـة مـن ناحيـة ربطـه بالمسـجدين الحـرام في مكـة المكرمـة، والنبـوي في المدينـة المنـورة، مـع مـا لـكل مـن هـذه المسـاجد الثلاثة مـن خصائـص ومـيزات، ووقفـت عنـد قضيـة الحـث عـلى شـد الرحـال إليهـا، الـذي ينحـصر تشريعـه إليهـا عـلى وجـه البسـيطة، دون سـواها مـن المسـاجد، صغيرهـا وكبيرهـا، وأجريـت مناقشـة مختـصرة لمسـألة حـصر شـد الرحـال لهـذه المسـاجد، تخللهـا بيـان حكـم شـد الرحال إلى غـير هـذه المسـاجد الثلاثـة.

ثاني مسجد وضع في الأرض:

مـن خصائـص المسـجد الأقـصى المبـارك البـارزة أنـه المسـجد الثـاني الـذي وضعـه اللـه في الأرض لعبادتـه سـبحانه، كمـا جـاء في حديـث أبي ذر أعـلاه، والفـارق الزمـاني بينـه وبـين المسـجد الحـرام الـذي سـبقه في الوجـود هـو أربعـون سـنة، ولهـذه الخصيصـة مـن الدلالـة

*صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه

على أهمية المسجد الأقصى المبارك ما لها، فالمساجد في الأرض شرقها وغربها، شمالها وجنوبها لا تعد ولا تحصى، لكن لم تكن حظوة السبق في الوجود إلا للمسجد الحرام، تلاه مباشرة المسجد الأقصى المبارك، مما يشير دون أي ريب إلى مكانة هذين المسجدين وعظمتيهما، ومن أغرب المستعجب أن ينسى هذا الفضل كثير من المسلمين على مختلف منازلهم، بدليل تقاعسهم عن نصرته والذود عن حياضه، وهم يشاهدون بأعينهم ما يجري له من تدنيس، وما يتعرض له من حرب ضروس.

المسرى:

ومن أعظم أوجه أهمية المسجد الأقصى المبارك في الإسلام، أن الله سبحانه اختاره مسرى لنبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، من بيته الحرام في مكة المكرمة، وأنزل سورة في قرآنه الكريم أسماها الإسراء، افتتحها بالإخبار عن عظمة هذا الحدث الديني والتاريخي والرباني، فقال عز وجل: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[*]، فكيف لمسلم يؤمن بالله رباً، وبمحمد، صلى الله عليه وسلم، رسولاً ونبياً، وبالقرآن الكريم كتاباً من الله منزلاً، وبالملائكة والنبيين، واليوم الآخر، أن يتجاهل أهمية المسرى؟! أو أن يفرط في ترابه، أو أن يتغاضى عن تدنيسه وتقسيمه وظلم رواده؟! تساؤل حقيق بالطرح دائماً، لأن واقع ردود أفعال بني المسلمين عجيب غريب تجاه ما يجري لمسرى نبيهم الهادي، صلى الله عليه وسلم، فبعضهم بلغ به التهاون أن قال بأنه مسجد كباقي المساجد، وهي غيره كثيرة، وبعضهم حزين باستحياء على ما يجري له، فهو

* الإسراء:1.

يـرى، لكـن حـرارة حزنـه لـم تسـتدع دمـع عينـه لتسـكب عليـه، حيـث بعـض الدنيـا بأشـغالها ومتاعهـا تلهيـه عنـه، والحجـة البائسـة أن مـا في اليـد حيلـة، وهـذان الصنفـان مسـيئان، وإن عـلى تفـاوت في الدرجـة، لكـن المحصلـة واحـدة تعـني أن المسرى لا يجـد مـن حامـلي هكـذا أفـكار وفهـم عقيـم نـصرة، بـل عـلى العكـس مـن ذلـك، فإنـه يكتـوي بنـار خذلانهـم، وسـموم طعنهـم، وكآبـة مواقفهـم.

أولى القبلتين:

المسـجد الأقـصى المبـارك أولى قبلـتي صـلاة المسـلمين، فعـن الـبَرَاءِ بـن عـازب:(أَنَّ النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، كان أَوَّلَ مـا قَـدِمَ المَدِينَـةَ، نَـزَلَ عـلى أَجْـدَادِهِ- أو قـال: أَخْوَالِـهِ مـن الأَنْصَـار- وَأَنَّـهُ صـلى قِبَـلَ بَيْـتِ المَقْـدِسِ سِـتَّةَ عَـشَرَ شَـهْرًا، أو سَـبْعَةَ عَـشَرَ شَـهْرًا، وكان يُعْجِبُـهُ أَنْ تَكُـونَ قِبْلَتُـهُ قِبَـلَ البَيْـتِ، وَأَنَّـهُ صـلى أَوَّلَ صَـلاةٍ صَلاهَـا قِبَـلَ البَيـتِ الحـرامِ صَـلاةَ العَـصْرِ، وَصَـلَّى معـه قَـوْمٌ، فَخَـرَجَ رَجُـلٌ مِمَّـنْ صـلى معـه، فَمَـرَّ عـلى أَهْـلِ مَسْـجِدٍ، وَهُـمْ رَاكِعُـونَ، فقـال: أَشْـهَدُ بِاللَّـهِ، لقـد صَلَّيْـتُ مـع رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قِبَـلَ مَكَّـةَ، فَـدَارُوا كما هُـمْ قِبَـلَ الْبَيْـتِ، وَكَانَـتِ الْيَهُـودُ قـد أَعْجَبَهُمْـإِذْ كان يُصَـلِّي قِبَـلَ بَيْـتِ المَقْـدِسِ، وَأَهْـلُ الْكِتَـابِ، فلمـا وَلَّى وَجْهَـهُ قِبَـلَ الْبَيْـتِ، أَنْكَـرُوا ذلـك).[*]

والتسـاؤل المـشروع الـذي يطـرح عنـد الحديـث عـن الإسراء والمعـراج، لِـمَ كان إلى المسـجد الأقـصى، وكان يمكـن أن يتـم المعـراج مبـاشرة مـن المسـجد الحـرام إلى السـماء؟!يطرح مثلـه هنـا، لِـمَ كانـت قبلـة أولى إلى بيـت المقـدس، ثـم عـدل عنهـا إلى المسـجد الحـرام في مكـة المكرمـة القبلـة الأخـيرة، وكان يمكـن أن تكـون القبلـة واحـدة إلى مكـة مـن

*صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى:{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (البقرة: 142)

البداية إلى النهاية؟! لكن الله يصرف الأمور ويقدرها كيفما يشاء، وله من وراء ذلك حِكم ومقاصد وغايات، يجتهد الخلق بالتدبر والنظر في استنباطها، ومن ذلك لفت الأنظار والقلوب والعيون إلى أهمية المسجد الأقصى المبارك في أرض فلسطين الشامية، بدليل ربطه بالمسجد الحرام في مكة المكرمة بهذه الوشائج والصلات تاريخياً وتعبدياً وأحداث عظيمة، مما يعني تبكيت الغافلين عنه، المتجاهلين لهمومه، المتقاعسين عن تلبية ندائه واستغاثة المرابطين في رحابه.

فهذه وقفات تذكيرية عاجلة، تساق لقارئيها بمناسبة حلول ذكرى حادثة الإسراء والمعراج، جديرة بالتدبر والقراءة المتأنية، على أمل أن تنفع الذكرى، فتجذب عيون الذين يؤمنون بالإسلام وقلوبهم وعقولهم وأبدانهم لمسرى نبيهم محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الفصل السادس / أخلاق وقيم

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	سياسته مع الأحمق المطاع - الحلقة الأولى	135
.2	سياسته مع الأحمق المطاع - الحلقة الثانية	139
.3	سياسته مع الأحمق المطاع - الحلقة الثالثة	142
.4	سياسته مع الأحمق المطاع - الحلقة الرابعة والأخيرة	146
.5	يرسي مبدأ احترام حقوق اللاجئين	150
.6	نهاه الله عن طاعة أصحاب الأهواء - الحلقة الأولى	154
.7	نهاه الله عن طاعة أصحاب الأهواء - الحلقة الثانية والأخيرة	158
.8	أمره الله أن يُعرض عن الجاهلين	161
.9	وقوله: «إذا لم تستحي فَاصْنَعْ ما شِئْتَ» - الحلقة الأولى	165
.10	وقوله: «إذا لم تستحي فَاصْنَعْ ما شِئْتَ» - الحلقة الثانية	168
.11	وقوله: «إذا لم تستحي فَاصْنَعْ ما شِئْتَ» - الحلقة الثالثة والأخيرة	171

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

سياسته مع الأحمق المطاع

الحلقة الأولى

عـن عَائِشَـةَ، أَنَّ رَجُـلًا اسْـتَأْذَنَ عـلى النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فلمـا رَآهُ قـال: (بِئْـسَ أَخُـو الْعَشِـيرَةِ، وَبِئْـسَ ابـن الْعَشِـيرَةِ، فلمـا جَلَـسَ تَطَلَّـقَ النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في وَجْهِـهِ، وَانْبَسَـطَ إليـه، فلمـا انْطَلَـقَ الرَّجُـلُ، قالـت لـه عَائِشَـةُ: يـا رَسُـولَ اللَّـهِ، حـين رَأَيْـتَ الرَّجُـلَ، قُلْـتَ لـه: كَـذَا وَكَـذَا، ثُـمَّ تَطَلَّقْـتَ في وَجْهِـهِ، وَانْبَسَـطْتَ إليـه! فقـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: يـا عَائِشَـةُ، مَـتَى عَهِدْتِـنِي فَحَّاشًـا؟! إِنَّ شَرَّ النـاس عِنْـدَ اللَّـهِ مَنْزِلَـةً يـوم الْقِيَامَـةِ، مـن تَرَكَـهُ النـاس اتِّقَـاءَ شَرِّهِ)[*]

في هـذا الحديـث الشريـف، موقفـين للنـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، مـع رجـل اسـتأذن عليـه، فذمـه قبـل مقدمـه، قائلاً:(بِئْـسَ أَخُـو الْعَشِـيرَةِ، وَبِئْـسَ ابـن الْعَشِـيرَةِ)، ثـم لما دخـل عليـه، وجلـس عنـده، تطلـق في وجهـه، وانبسـط إليـه، ممـا دفـع عائشـة، رضي اللـه عنهـا، لإبـداء الاسـتغراب مـن تناقـض في ظاهـر الموقفـين، فـرد عليهـا صـلى اللـه عليـه وسـلم، موضحـاً دافعـه للتـصرف الثـاني مـع مـن ذمـه أولاً، ممـا يـدل عـلى سياسـة مقصـودة، وحسـن تـصرف، فليـس كل مـا يُعلـم يقـال، وليـس مـن الـذوق والأدب والحكمـة انتهـاج الفظاظـة في الإفصـاح عمـا لـدى المـرء الحكيـم مـن انطبـاع سـلبي عمـن يحدثـه أو يقابلـه.

* صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي، صلى الله عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً.

ظاهرة الأحمق المطاع:

الرجل المشار إليه في الحديث أعلاه، هو عيينة بن حصن الفزاري، ذكر ذلك ابن بطال والنووي وعياض والقرطبي وغيرهم، وكان يقال له الأحمق المطاع.[1]

ويذكر القرطبي أن الأحمق المطاع كان من الجرارين؛ يجر عشرة آلاف قناة - أي يتبعه الآلاف-[2]

وكان عيينة في الجاهلية موصوفاً بالشجاعة والجهل والجفاء، وله ذكر في المغازي، ثم أسلم في الفتح، وشهد مع النبي، صلى الله عليه وسلم، حنيناً، فأعطاه مع المؤلفة، وسماه الأحمق المطاع.[3]

وقيل: إنه المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم:(إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ)[4]

وظاهرة الأحمق المطاع قديمة جديدة، فكم من الناس يتصفون بالحماقة التي اتصف بها عيينة بن حصن، فيخشى الناس أن يلحقهم شيء من أذاهم أو شرهم؛ لأن لهم من القوة البشرية والمادية ما يعينهم على الإجرام والبطش بحماقة، كالذي يشطب حقوق بعض الناس التاريخية والعقائدية بجرة قلم متسرعة وهوجاء، تناقلتها وسائل الإعلام، ومواقع التواصل الاجتماعي، ومحطات نقل الأخبار، ففاق بحماقته تلك التي كانت من عيينة بن حصن في سالف الزمان، ويبدو أن التاريخ يعيد نفسه، والاستنساخ السلوكي قائم بجلاء.

---

1. عمدة القاري:22 / 117، وتحفة الأحوذي:6 /112، وشرح الزرقاني:4 /318.
2. تفسير القرطبي:16 /310.
3. عمدة القاري:25/ 30.
4. السيرة الحلبية:2 /582.

المداراة غير المداهنة:

جاء في فتح الباري، أن المراد بالعشيرة الجماعة أو القبيلة، وأن قوله: (فلما جلس تطلق) بفتح الطاء وتشديد اللام، أي أبدى له طلاقة وجهه، يقال: وجهه طلق وطليق، أي مسترسل منبسط، غير عبوس، قال الخطابي: جَمَع هذا الحديث علماً وأدباً، وقال القرطبي: في الحديث جواز غيبة المُعلِن بالفسق أو الفحش، ونحو ذلك من الجَور في الحكم، والدعاء إلى البدعة، مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم، ما لم يؤد ذلك إلى المداهنة في دين الله تعالى، ثم بيّن الفرق بين المداراة والمداهنة، فالمداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين، أو لهما معا، وهي مباحة، وربما استحبت، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا، والنبي، صلى الله عليه وسلم، إنما بذل لعيينة من دنياه حسن عشرته، والرفق في مكالمته، ومع ذلك فلم يمدحه بقول، فلم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معه حسن عشرة، فيزول مع هذا التقرير الإشكال.

وأراد النبي، صلى الله عليه وسلم، أن يبين ذلك؛ لئلا يغتر به من لم يعرف باطنه، وقد كانت منه في حياة النبي، صلى الله عليه وسلم، وبعده، أمور تدل على ضعف إيمانه، فيكون ما وصفه به النبي، صلى الله عليه وسلم، من جملة علامات النبوة، وأما إلانة القول له بعد أن دخل في الإسلام، فعلى سبيل التألف له.

وهذا الحديث أصل في المداراة، وفي جواز غيبة أهل الكفر والفسق ونحوهم، والله أعلم.[1]

والمرونة في المداراة تتماشى مع كفه صلى الله عليه وسلم، عن الفظاظة في التعامل، حيث مدحه ربه فقال عز وجل:{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[2]

1. فتح الباري:10 /454.

2. آل عمران:159.

فهذه وقفة عند حماقة أناس يطيعهم كثير من الناس طاعة عمياء انخداعاً بهم، أو اتقاء لشرهم، والمطلوب يقظة ووعي ثاقبان على جنايات الحمقى، وأخذ الحيطة والحذر من أصحاب الحماقة أينما وجدوا، بغض النظر عن شخوصهم وأسمائهم، وينبغي البحث عن أنجع الأساليب والوسائل لفضح اعوجاج الحمقى، دون انخداع بسواد الخلق الذين يطيعونهم، على أمل التمكن من متابعة الوقوف عند السياسة المطلوبة لمواجهة حماقات المطاعين، في ضوء توجيهات رسولنا، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

سياسته مع الأحمق المطاع

الحلقة الثانية

عـن أَبِي سَـعِيدٍ الْخُـدْرِيَّ، قال:(بَعَـثَ عَـلِيٌّ بـن أبي طَالِـبٍ، رضي اللـه عنـه، إلى رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، مـن الْيَمَـنِ بِذُهَيْبَـةٍ فِي أَدِيـمٍ مَقْـرُوظٍ، لـم تُحَصَّـلْ مـن تُرَابِهَـا، قـال: فَقَسَـمَهَا بـين أَرْبَعَـةِ نَفَـرٍ: بـين عُيَيْنَـةَ بـن بَـدْرٍ، وَأَقْـرَعَ بـن حابِـسٍ، وَزَيْـدِ الْخَيْـلِ، وَالرَّابِـعُ إِمَّـا عَلْقَمَـةُ، وَإِمَّـا عَامِـرُ بـن الطُّفَيْـلِ، فقـال رَجُـلٌ مـن أَصْحَابِـهِ: كنـا نَحْـنُ أَحَـقَّ بهـذا مـن هَـؤُلَاءِ! قـال: فَبَلَـغَ ذلـك النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فقـال: ألا تأمنـوني، وأنـا أَمِينُ مـن في السَّـمَاءِ، يَأْتِينِي خَـبَرُ السَّـمَاءِ صَبَاحًـا وَمَسَـاءً؟!!

قـال: فَقَـامَ رَجُـلٌ غَائِـرُ الْعَيْنَـيْنِ، مُـشْرِفُ الْوَجْنَتَـيْنِ، نَـاشِزُ الْجَبْهَـةِ، كَـثُّ اللِّحْيَـةِ، مَحْلُـوقُ الـرَّأْسِ، مُشَـمَّرُ الْإِزَارِ، فقـال: يـا رَسُـولَ اللَّـهِ، اتَّـقِ اللَّـهَ، قـال: وَيْلَـكَ، أولسـت أَحَـقَّ أَهْـلِ الأرض أَنْ يَتَّقِيَ اللَّـهَ؟!! قـال: ثُـمَّ وَلَّى الرَّجُـلُ، قـال خَالِـدُ بـن الْوَلِيـدِ: يـا رَسُـولَ اللَّـهِ، ألا أَضْرِبُ عُنُقَـهُ؟ قـال: لَا، لَعَلَّـهُ أَنْ يَكُـونَ يُصَـلِّي، فقـال خَالِـدٌ: وَكَـمْ مـن مُصَـلٍّ يقـول بِلِسَـانِهِ مـا ليـس في قَلْبِـهِ؟ قـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: إني لـم أُومَـرْ أَنْ أَنْقُـبَ عـن قُلُـوبِ النـاس، ولا أَشُـقَّ بُطُونَهُـمْ...)[*]

تعرضت الحلقة السابقة لمسألة الرد على الاستغراب من تناقض في ظاهر تَطَلُّقَ النبي، صلى الله عليه وسلم، في وَجْهِ رجل، وَانْبَسَاطَه إليه، لما جلس بقربه، وكان قبل ذلك قد قال فيه:(بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبِئْسَ بن الْعَشِيرَةِ)، فوضح عليه الصلاة والسلام، ذلك، فقال: يا عَائِشَةُ، مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا؟! مضيفاً مزيداً من التبرير لتصرفه، بقوله صلى الله عليه وسلم:(إِنَّ شَرَّ النـاس عِنْدَ اللَّـهِ مَنْزِلَـةً يـوم الْقِيَامَـةِ، مـن تَرَكَـهُ النـاس اتِّقَـاءَ شَرِّهِ)

* صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب، عليه السلام....

وأشير إلى أن الشخص المقصود في ذلك الحديث هو عيينة بن حصن بن حذيفة ابن بدر الفزاري، وصف بالأحمق المطاع، وكان موصوفاً بالشجاعة والجهل والجفاء، ويتبعه الآلاف، وعلى شاكلته كثيرون، بل تفوق حماقة بعضهم ما كان لديه، وتم التعريج على الفرق بين المداراة والمداهنة، بناء على ما تضمنه الحديث الشريف المثبت في صدر الحلقة السابقة.

خص حمقى وبعض من كانوا على شاكلتهم بعطايا:

في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ أعلاه، خص الرسول، صلى الله عليه وسلم، الأحمق المطاع بجزء من عطاء ورده، وكان عبارة عن ذهيبة لم تخلص من ترابها وتصف حتى يثبت منها التبر.[1] والذهيبة تصغير ذهبة[2]، فَقَسَمَهَا بين أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، كان منهم عيينة، وذلك جزء من سياسته معه وأمثاله، ليستميل قلوبهم، ويبعد عن المسلمين شرهم، حتى إن بعض من لم يفقهوا أبعاد هذه السياسة الحكيمة، ولم يستوعبوا مراميها، احتجوا على هذا الإعطاء، فقال أحدهم:(كنا نَحْنُ أَحَقَّ بهذا من هَؤُلَاءِ)، وبلغ بأحدهم أن قال: (يا رَسُولَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ)، ورغم حزمه صلى الله عليه وسلم، وعمق رده عليهما، فقال للأول: (ألا تَأْمَنُونِي وأنا أَمِينٌ من في السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً؟)، وقال للثاني: (وَيْلَكَ، أو لست أَحَقَّ أَهْلِ الأرض أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ؟!!)، لكنه لم يأذن بالانتقام منهما، أو تصفيتهما، فقد استأذنه خالد بن الوليد في قتل معترض منهما، فلم يأذن له صلى الله عليه وسلم. وقد وصف هذا الرجل بأنه غائر العينين، أي أن عينيه داخلتان في محاجرهما، لاصقتان بقعر الحدقة، وهو ضد الجحوظ، و(مشرف الوجنتين) أي بارزهما، والوجنتان العظمان المشرفان على الخدين، و(نَاشِزُ الْجَبْهَةِ) أي مرتفع الجبهة، و(كث اللحية) كثير شعرها، و(محلوق الرأس) كانوا لا يحلقون رؤوسهم، وكانوا يفرقون شعورهم، و(مشمر الإزار) أي رافعه عن الكعب.[3]

1. مشارق الأنوار:1/ 205.
2. عمدة القاري:18 /7.
3. عمدة القاري:18 /8.

حكمة القائد ونجاعة سياسته:

لما رفض عليه الصلاة والسلام، الإذن لخالد بن الوليد بقتل من تطاول في المخاطبة والاحتجاج، قال:(لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي) مما يؤكد بُعدَ نظره صلى الله عليه وسلم، وبالغ حكمته في السياسة التي انتهجها خلال تعامله مع صنوف الناس الذين خالطوه وقابلوه.

وأضاف صلى الله عليه وسلم، في تفسير سياسته والإفصاح عنها، فقال:(إِنِي لم أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عن قُلُوبِ الناس، ولا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ) وأراد بقوله:(أن أنقب) أنه أمر بالأخذ بظواهر الأمور، والبواطن لا يعلمها إلاَّ الله. وقال القرطبي: إنما منع قتله، وإن كان قد استوجب القتل؛ لئلا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه.[1]

ويؤكد ما ذهب إليه القرطبي في هذا التعليل قوله صلى الله عليه وسلم، في حادثة مشابهة، لما بلغته مقولة زعيم النفاق عبد الله بن أبي: (والله لَئِنْ رَجَعْنَا إلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ منها الْأَذَلّ، فَقَامَ عُمَرُ، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هذا الْمُنَافِقِ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: دَعْهُ، لَا يَتَحَدَّثُ الناس أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ، وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ أَكْثَرَ من الْمُهَاجِرِينَ حين قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، ثُمَّ إِنَّ الْمُهَاجِرِينَ كَثُرُوا بَعْدُ)[2]

فهذه وقفة أخرى عند حماقة أناس ورعونتهم، على أمل التمكن من متابعة الوقوف عند منهجية التعامل مع الحمقى المطاعين، وفق ما تجلى في سياسة رسولنا، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. عمدة القاري:18 /8 - 9.

2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة المنافقين، باب قوله: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ المنافقون:6.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

سياسته مع الأحمق المطاع

الحلقة الثالثة

عـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، عـن رسـول اللَّهِ، صـلى الله عليـه وسـلم، قال:(تَجِدُونَ النـاس مَعَـادِنَ، خِيَارُهُـمْ فِي الْجَاهِلِيَّـةِ خِيَارُهُـمْ فِي الْإِسْـلَامِ إذا فَقِهُـوا، وَتَجِـدُونَ خَـيْرَ النـاس فِي هـذا الشَّـأْنِ أَشَـدَّهُمْ لـه كَرَاهِيَـةً، وَتَجِـدُونَ شَرَّ النـاس ذَا الْوَجْهَـيْنِ، الـذي يَـأْتِي هَـؤُلَاءِ بِوَجْـهٍ، وَيَـأْتِي هَـؤُلَاءِ بِوَجْـهٍ)(*)

وقفـت الحلقـة السـابقة عنـد خـص حمقـى وبعـض مـن كانـوا عـلى شـاكلتهم بعطايـا، حيـث وردتـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، ذهيبـة، فَقَسَـمَهَا بـين أَرْبَعَـةِ نَفَـرٍ، كان منهـم عيينـة بـن حصـن الفـزاري، الأحمـق المطـاع، وذلـك ليسـتميل قلوبهـم، ويبعـد عـن المسـلمين شرهـم، ووقفـت الحلقـة عنـد حكمتـه، صـلى اللـه عليـه وسـلم، كقائـد ونجاعـة سياسـته، حيـث رفـض الإذن لخالـد بـن الوليـد بقتـل مـن تطـاول في المخاطبـة والاحتجـاج، فقـال لخالد:(لَعَلَّـهُ أَنْ يَكُـونَ يُصَـلِّي) ممـا يؤكـد عمـق نظـره، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وبالـغ حكمتـه في السياسـة الـتي انتهجهـا مـع صنـوف النـاس الذيـن خالطـوه وقابلـوه، أيضـاً منعـه عمـر مـن قتـل زعيـم النفاق عبـد اللـه بـن أبي، بعـد مقولته:(واللـه لَـئِنْ رَجَعْنَـا إلى الْمَدِينَـةِ لَيُخْرِجَـنَّ الْأَعَـزُّ منهـا الْأَذَلَّ) فَقَـامَ عُمَـرُ، فقـال: يـا رَسُـولَ اللَّـهِ، دَعْـنِي أَضْرِبْ عُنُـقَ هـذا الْمُنَافِـقِ، فقـال النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (دَعْـهُ، لَا يَتَحَـدَّثُ النـاس أَنَّ مُحَمَّـدًا يَقْتُـلُ أَصْحَابَـهُ).

* صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى:{ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} الحجرات: 13.

الناس معادن خيارهم إذا فقهوا:

في الحديث الشريف أعلاه يشبه صلى الله عليه وسلم، الناس بالمعادن، مستطرداً في البيان بأن خِيَارهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إذا فَقِهُوا، جاء في فتح الباري، أن المراد بـ(الناس معادن)، أي أصولاً مختلفة، والمعادن جمع معدن، وهو الشيء المستقر في الأرض، فتارة يكون نفيساً، وتارة يكون خسيساً، وكذلك الناس.

ووجه التشبيه في قوله:(خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام) أن المعدن لما استخرج، ظهر ما اختفى منه، ولا تتغير صفته، فكذلك صفة الخيرية، لا تتغير في ذاتها، بل من كان خيراً في الجاهلية، فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس، فإن أسلم استمر شرفه، وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية.

وأما قوله: (إذا فقهوا) ففيه إشارة إلى أن الخيرية في الإسلام لا تتم إلا بالتفقه في الدين، وعلى هذا فينقسم الناس أربعة أقسام، مع ما يقابلها:

الأول: شريف في الجاهلية، أسلم وتفقه، ويقابله مشروف في الجاهلية، لم يسلم، ولم يتفقه.

الثاني: شريف في الجاهلية، أسلم، ولم يتفقه، ويقابله مشروف في الجاهلية، لم يسلم، وتفقه.

الثالث: شريف في الجاهلية، لم يسلم، ولم يتفقه، ويقابله مشروف في الجاهلية أسلم، ثم تفقه.

الرابع: شريف في الجاهلية، لم يسلم، وتفقه، ويقابله مشروف في الجاهلية، أسلم، ولم يتفقه.

فأرفع الأقسام من شرف في الجاهلية، ثم أسلم، وتفقه، ويليه من كان مشروفاً، ثم أسلم، وتفقه، ويليه من كان شريفاً في الجاهلية، ثم أسلم، ولم يتفقه، ويليه من كان مشروفاً، ثم أسلم، ولم يتفقه، وأما من لم يسلم، فلا اعتبار به، سواء كان شريفاً أم مشروفاً، وسواء تفقه أم لم يتفقه، والله أعلم.

والمراد بالخيار والشرف، وغير ذلك، من كان متصفاً بمحاسن الأخلاق، كالكرم والعفة والحلم وغيرها، متوقياً لمساويها، كالبخل والفجور والظلم وغيرها.[1]

شر الناس:

في سياق فرز خيار الناس من مجملهم، فالناس معادن، لا يتساوى من كان منهم نحاساً مع من يكون ذهباً، فقد أخبر عليه الصلاة والسلام، أن شر الناس ذو الوجهين، كما جاء في الحديث الشريف أعلاه، وفي الحديث الذي تصدر الحلقة الأولى جاء:(... إِنَّ شَرَّ النَاس عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يوم الْقِيَامَةِ، من تَرَكَهُ النَاس اتِّقَاءَ شَرِّهِ)[2]

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (ذا الوجهين) مفعول ثان لقوله: (تجدون شر الناس)، وذو الوجهين هو المنافق، وهو الذي يمشي بين الطائفتين بوجهين، يأتي لإحداهما بوجه، ويأتي للأخرى بخلاف ذلك.

وقال الله تعالى:{مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً}[3] قال المفسرون: مذبذبين يعني المنافقين، متحيرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا هم مع الكفار ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى هؤلاء.[4]

1. فتح الباري:6/ 529 - 530، بتصرف.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي، صلى الله عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً.
3. النساء:143.
4. عمدة القاري:16 /69.

وعـن ابـن عُمَـرَ، عـن النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قال:(مَثَـلُ الْمُنَافِـقِ كَمَثَـلِ الشَّـاةِ الْعَائِـرَةِ بـين الْغَنَمَـيْنِ، تَعِـيرُ إلى هـذه مَـرَّةً، وَإِلَى هـذه مَـرَّةً)[1]، ومعـنى العائـرة المـترددة الحائـرة، لا تـدرى لأيهمـا تتبـع، ومعـنى تعـير: أي تُـردد وتذهـب.[2]

والمقصـود بقولـه: (بـين الغنمـين) أي القطيعـين مـن الغنـم، وبقولـه: (تعـير إلى هـذه مـرة، وإلى هـذه مـرة) أي تعطـف عـلى هـذه، وعـلى هـذه، لا تـدري أيهمـا تتبـع، لأنهـا غريبـة؛ ليسـت منهمـا، فكـذا المنافـق لا يسـتقر بالمسـلمين ولا بالكافريـن، بـل يقـول لـكل منهـم: (أنـا منكـم).[3]

فهـذه وقفـة أخـرى عنـد حماقـة بعـض النـاس وشرهـم، على أمـل التمكـن مـن متابعة الوقـوف عنـد منهجيـة التعامـل مـع الحمقـى المطاعـين، وفـق مـا تجـلى في سياسـة رسـولنا، صـلى اللـه وسـلم عليـه، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.

2 صحيح مسلم بشرح النووي:17 /128.

3.التيسير بشرح الجامع الصغير:2 /373.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

سياسته مع الأحمق المطاع

الحلقة الرابعة والأخيرة

عـن ابـن عَبَّـاسٍ، رضي اللـه عنهمـا، قال:(قَـدِمَ عُيَيْنَـةُ بـن حِصْـنِ بـن حُذَيْفَـةَ، فَـنَزَلَ عـلى ابـن أَخِيـهِ الْحُـرِّ بـن قَيْـسٍ، وكان مـن النَّفَـرِ الَّذِيـنَ يُدْنِيهِـمْ عُمَـرُ، وكان الْقُـرَّاءُ أَصْحَـابَ مَجَالِـسِ عُمَـرَ وَمُشَـاوَرَتِهِ، كُهُـولًا كَانُـوا أو شُـبَّانًا، فقـال عُيَيْنَـةُ لابـن أَخِيـهِ: يـا ابـن أَخِـي، هـل لـك وَجْـهٌ عِنْـدَ هـذا الْأَمِـيرِ؟ فَاسْـتَأْذِنْ لِي عليـه، قـال: سَأَسْـتَأْذِنُ لـك عليـه، قـال ابـن عَبَّـاسٍ: فَاسْـتَأْذَنَ الْحُـرُّ لِعُيَيْنَـةَ، فَـأَذِنَ لـه عُمَـرُ، فلما دخـل عليـه، قـال: هِـيْ يـا ابـن الْخَطَّـابِ، فَوَاللَّـهِ مـا تُعْطِينَـا الْجَـزْلَ، ولا تَحْكُـمُ بَيْنَنَـا بِالْعَـدْلِ، فَغَضِـبَ عُمَـرُ حـتى هَـمَّ أن يوقـع بِـهِ، فقـال لـه الْحُـرُّ: يـا أَمِـيرَ الْمُؤْمِنِـينَ؛ إِنَّ اللَّـهَ تَعَـالَى قـال لِنَبِيِّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: {خُـذِ الْعَفْـوَ وَأْمُـرْ بِالْعُـرْفِ وَأَعْـرِضْ عـن الْجَاهِلِـينَ}، وَإِنَّ هـذا مـن الْجَاهِلِـينَ، واللـه مـا جَاوَزَهَـا عُمَـرُ حـين تَلَاهَـا عليـه، وكان وَقَّافًـا عِنْـدَ كِتَـابِ اللَّـهِ)[*]

وقفـت الحلقـة السـابقة عنـد تشـبيه النـاس بالمعـادن، وأن خِيَارهُـمْ فِي الْجَاهِلِيَّـةِ خِيَارُهُـمْ فِي الْإِسْـلَامِ، إذا فَقِهُـوا، ومثلمـا أن المعـادن لا تتسـاوى في النفـع والقيمـة، وكذلـك النـاس لا يتسـاوون في الخـير والـشر، وشرهـم ذو الوجهـين، الـذي يـأتي هَـؤُلَاءِ بِوَجْـهٍ، وَيَـأْتِي هَـؤُلَاءِ بِوَجْـهٍ، وفي حديـث آخـر ذُكِـرَ صنـف ثـانٍ مـن شر النـاس عِنْـدَ اللَّـهِ مَنْزِلَـةً يـوم الْقِيَامَـةِ، وهـو مـن تَرَكَـهُ النـاس اتِّقَـاءَ شَرِّهِ.

* صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الأعراف، باب {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}(الأعراف: 199)

الأحمق المطاع من الجاهلين:

عيينة بن حصن الفزاري، الملقب بالأحمق المطاع، واصل حماقته في مواقف ثبتت صحة أخبارها بعد وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، ففي حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، أعلاه، انتهز عيينة فرصة الإذن له بمقابلة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقام بالتعبير عما يجول في داخله من نفاق وزيغ، فقال لعمر:(هِيْ يا ابن الْخَطَّابِ، فَوَ اللَّهِ ما تُعْطِينَا الْجَزْلَ، ولا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ) فَغَضِبَ عُمَرُ حتى هَمَّ بِهِ، فأشار عليه الحر بن قيس بانتهاج سياسة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، التي تلقّى مبادئها من ربه، وذكره بقوله تعالى لنبيه، صلى الله عليه وسلم: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[1]، واستطرد الحر مبيناً: (وَإِنَّ هذا من الْجَاهِلِينَ).

واللطيف أن عمر، رضي الله عنه، قبل من الحر هذا التذكير، فأخذ بمضمونه، وأعرض عن الأحمق، حيث جاء في الخبر أعلاه: (والله ما جَاوَزَهَا عُمَرُ حين تَلَاهَا عليه، وكان وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ).

السياسة مع الحمقى تحتاج إلى من يفهمها وينتهجها:

الناس ليسوا متساوين في الفهم والاستيعاب للأمور والمواقف، فدرجاتهم في ذلك متفاوتة، والمواقف من الحمقى والسياسة الناجعة في معاملتهم والمفعمة بكظم الغيظ مع أخذ الحيطة والحذر منهم، هي سياسة محكمة، دلت على ذلك مواقف الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي تطلق وجهه للأحمق، على الرغم من علمه بحاله وصفاته، بدليل أن تطلقه له سُبق بقوله، عليه الصلاة والسلام، عنه:(بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابن الْعَشِيرَةِ)[2].

1. الأعراف:199.

2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي، صلى الله عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً.

وما صدر من عيينة من قول فظ مع الفاروق عمر بن الخطاب، سبقته مواقف واجهها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بحسن التدبير، حسب ما جاء في حديث أبي سعيد المثبت في الحلقة الثانية، لما قسم عطية جاءته من اليمن بين عيينة وثلاثة آخرين، فقال رَجُل:(كنا نَحْنُ أَحَقَّ بهذا من هَؤُلَاءِ)! فلما بَلَغَ ذلك النبي، عليه الصلاة والسلام، قال: ألا تأمنوني، وأنا أَمِينُ من في السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً؟!!)[1]

ثمرات حسن السياسة مع الأحمق المطاع:

اختيار الرد الحكيم على المواقف المستفزة، يشد الحبل على أعناق المتربصين والجاهلين، ويضيق عليهم السبل، ويحاصر كيدهم بأقل الخسائر، ويدفع فتناً جمةً، وخلافاتٍ صعبةً، فليس كل انحراف أو استفزاز يناسبه الرد عليه ببطش، وإنما قد يكفيه دحض لاذع، بقول أو عبارة، تكون للمستوعب أشد في وقعها من صرامة السِنان، والرسول، عليه الصلاة والسلام، أشار إلى بعض أبعاد سياسته في التعامل مع الحمقى، فرد على تساؤل عائشة، رضي الله عنها، حول ذلك قائلاً: (مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا)؟! مضيفاً مزيداً من التبرير لتصرفه: (إِنَّ شَرَّ النَاس عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يوم الْقِيَامَةِ، من تَرَكَهُ النَاس اتِّقَاءَ شَرِّهِ)[2].

ولما استفز سلوك الحمقى صحابته، رضي الله عنهم، لم يسمح لهم بالانتقام منهم، وقال عن أحد الحمقى: (لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي)، مضيفاً: (إني لم أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عن قُلُوبِ النَاس، ولا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ)[3]

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب، عليه السلام، وخالد بن الوليد، رضي الله عنه، إلى اليمن قبل حجة الوداع.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي، صلى الله عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً.
3. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب، عليه السلام، وخالد بن الوليد، رضي الله عنه، إلى اليمن قبل حجة الوداع.

وفي موقف مستفز آخر، لما استأذن عمر بن الخطاب أن يقتل المستفز، قال له رسول الله، عليه الصلاة والسلام:(دَعْهُ،لَا يَتَحَدَّثُ النَاس أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ) [*].

والشواهد لهذه السياسة الحكيمة عديدة، يمكن للباحث في سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن يقف عند مزيد منها، لتكون فيها عبرة وعظة وأسوة حسنة.

وبهذا نختم الحديث في هذه المرحلة عن السياسة التي ينبغي انتهاجها مع حماقة بعض الناس وشرهم، بما يتماشى مع منهجية التعامل مع الحمقى المطاعين، وفق ما تجلى في سياسة رسولنا، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن سورة المنافقين، باب قوله: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)(المنافقون: 6).

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يرسي مبدأ احترام حقوق اللاجئين

عـن أَنَـسٍ، رضي اللـه عنـه، أَنَّـهُ قـال: (قَـدِمَ عَلَيْنَـا عبـد الرحمـن بـن عَـوْفٍ، وَآخَـى رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، بَيْنَـهُ وَبَـيْنَ سَـعْدِ بـن الرَّبِيـعِ، وكان كَثِـيرَ الْمَـالِ، فقـال سَـعْدٌ: قـد عَلِمَـت الْأَنْصَـارُ أَنِّي مـن أَكْثَرِهَـا مَـالًا، سَأَقْسِـمُ مَـالِي بَيْـنِي وَبَيْنَـكَ شَـطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَـانِ، فَانْظُـرْ أَعْجَبَهُمَـا إِلَيْـكَ، فَأُطَلِّقُهَـا حـتى إذا حَلَّـتْ، تَزَوَّجْتَهَـا، فقـال عبـد الرحمـن: بَـارَكَ اللـه لـك فِي أَهْلِـكَ، فلـم يَرْجِـعْ يَوْمَئِـذٍ حـتى أَفْضَـلَ شـيئاً مـن سَـمْنٍ وَأَقِـطٍ، فلـم يَلْبَـثْ إلا يَسِـيرًا، حـتى جـاء رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وَعَلَيْـهِ وَضَرٌ مـن صُفْـرَةٍ، فقـال لـه رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: مَهْيَـمْ؟! قـال: تَزَوَّجْـتُ امْـرَأَةً مـن الْأَنْصَـارِ، فقـال: مـا سُـقْتَ إِلَيْهَـا؟ قـال: وَزْنَ نَـوَاةٍ مـن ذَهَـبٍ، أو نَـوَاةً مـن ذَهَـبٍ، فقـال: أَوْلِـمْ وَلَـوْ بِشَـاةٍ)[1]

بمناسبة اليوم العالمي للاجئين، الذي يوافق سنوياً العشرين من حزيران، يحسن التذكير بعناية الإسلام بحقوق اللاجئين، التي تم التعبير عن الاهتمام بها، وإرساء مبادئها، خلال بيان أحكام الهجرة التي تم بها لجوء المهاجرين من مكة إلى المدينة المنورة، وما قابل ذلك من الإيواء والنصرة، ممثلتان بمواقف الأنصار الذين أثنى الله عليهم، لإيوائهم المهاجرين، وحبهم، فقال عز وجل:{وَالَّذِينَ تَبَوَّءو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[2]

1. صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي، صلى الله عليه وسلم، بين المهاجرين والأنصار.
2. الحشر:9.

وأثنى الله على المهاجرين والأنصار معاً، فقال تعالى:{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}(*)

حق اللاجئ بالعيش الكريم:

عمل الرسول، صلى الله عليه وسلم، على احترام حقوق اللاجئين في العيش الكريم والحياة الآمنة، وتجلى هذا الاحترام والحرص عليه، من خلال دمج المهاجرين مع محتضنيهم من الأنصار على أرض الهجرة، فآخى صلى الله عليه وسلم، بين المهاجرين، بصفتهم لجأوا إلى المدينة نصرة لدينهم الإسلام، وبين الأنصار، المحتضنين المتلقين لإخوانهم المهاجرين المتعاضدين معهم، وكانت من تداعيات تلك المؤاخاة الصورة المتضمنة في الحديث أعلاه، التي تعبر عن تقاسم المتيسر من مقومات العيش وأدواته بين اللاجئ والمضيف، وذلك حسب ما كان من طرح المحتضن سعد بن الربيع على أخيه المهاجر عبد الرحمن بن عوف، وفق الحديث أعلاه، فعبرت هذه الصورة عن ذروة المعاضدة والنصرة والإيواء والتلاحم، بما يظهر أن الأنصار كانوا يؤدون واجباً أحبوا القيام به لإخوانهم المهاجرين، بعيداً عن صور التفضل والمن والمزاجية، فأنْ يصل الأمر بسعد بن الربيع أن يعرض على أخيه المهاجر واللاجئ عبد الرحمن بن عوف، قسمة ماله بينهما شَطْرَيْنِ، ودعوته إياه لينْظُر إلى امرأتيه، فأيهما أَعْجَبَتْه طَلَّقهَا، حتى إذا حَلَّتْ تَزَوَّجْها أخوه المهاجر، فهو مشهد يشبه الخيال في الإيثار والتفاني، وستبقى البشرية تستذكره بعيون مندهشة، وقلوب مستعظمة، والسؤال المشروع طرحه حيال ذلك، يتعلق بالمؤثر الذي أثمر هكذا مواقف، وهكذا سلوك، إنه الإيمان بالإسلام،

* الأنفال:74.

وحب الانتصار له، وحب من أحبه، والتكاتف من أجل تحقيق عزته وبقائه، وفي منظومة كهذه يكون الإيثار على النفس رغم الخصاصة، ويكون الزهد بمدخرات متاع الغرور، والتطلع للباقيات الصالحات، ويكون النقاء من شوائب العصبيات، وظواهر الاختلاف البيئي والجغرافي والمستوى المعيشي.

الإبقاء على أمل عودة اللاجئين:

إلى جانب الحرص على ضمان حقوق اللاجئين، ليكونوا في وضعهم الاضطراري في حال عز وكرامة، دون أن يخضعوا لأي ابتزاز، أو اضطرار لطلب العيش والبقاء بذل أو خنوع، أو وضع خاوات، أو أتاوات، فإن الإسلام الحنيف ممثلاً بالقرآن الكريم نبه إلى الإبقاء على الأمل منعقداً بالعودة من أرض اللجوء، إلى الأرض المهاجر منها، فالله تعالى وعد نبيه المهاجر من بلده مكة، قائلاً:{إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ...}[1]، جاء في التفسير أن المعاد هنا الموضع الذي يعاد إليه، فقيل يعني مكة، والآية نزلت حين الهجرة، ففيها وعد بالرجوع إلى مكة وفتحها، وقيل: يعني الآخرة؛ فمعناها إعلام بالحشر، وقيل يعني الجنة.[2]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، في حال الهجرة من مكة جاءه هذا الوعد الرباني، بالعودة إلى بلده الذي اضطر للهجرة منه، ولم يطل العهد بهذا الوعد حتى تحقق، حين فتحت مكة، فبعد بضع سنين من الهجرة، عاد المهاجرون، وعلى رأسهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى مكة فاتحين، مرددين: (جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً)، وأملنا بالله أن يحقق للاجئين الفلسطينيين العودة المنشودة إلى

1. القصص:85.
2. التسهيل لعلوم التنزيل:3/ 112.

وطنهم وبلدانهم، وما ذلك على الله بعزيز، فما كان في السنة الثامنة من الهجرة، يمكن أن يتكرر، ولو بعد مئات السنين؛ لأن الخالق واحد سبحانه، يسير الكون بأمره، الذي هو بين الكاف والنون، وإذا أراد سبحانه شيئاً إنما يقول له: كن، فيكون.

ففي يوم اللاجئ، وفي الأيام كلها، ينبغي أن تبقى قضية اللاجئين نصب الأعين، وصوب الاهتمام والرعاية، والأمل بالعودة يعززه حَمَلَةُ مفاتيح العودة المنظورة، التي ستتحقق رغم أنف الكارهين، بإذن الله وعونه ومدده، وللمؤمنين عظة بعودة المسلمين إلى مكة بعد هجرتهم منها، وعلى رأسهم قائدهم ونبيهم، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

نهاه الله عن طاعة أصحاب الأهواء

الحلقة الأولى

يخاطب رب البرية نبيه محمداً، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}[1]

من مضامين الخطاب الرباني الذي شمله نص الآية الكريمة المثبت أعلاه، نهي كريم من الله عز وجل لنبيه الأسوة، صلى الله عليه وسلم، عن طاعة من أغفل قلبه عن ذكر الله، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً، يقول الشنقيطي: ومعلوم أنه، صلى الله عليه وسلم، لا يفعل شيئاً من ذلك، ولكن الله يخاطبه ليوجه الخطاب إلى غيره، ضمن خطابه صلى الله عليه وسلم.[2]

الطاعة بين اللزوم والرفض:

الطاعة تعني الاتباع والانقياد والمسايرة، والحديث عنها في ضوء الحكم الشرعي، يتراوح بين لزومها ووجوبها، وبين رفضها، فهي تجب لله والرسول، صلى الله عليه وسلم، أي لأحكام الشرع الحنيف المستقاة من معين القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وتجب لأولياء الأمور من العلماء والأمراء، حال تقيدهما بأحكام الشرع، ومن الآيات القرآنية الكريمة التي تسند هذا اللزوم، قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا

1. الكهف: 28.
2. أضواء البيان، 2 /3.

اللّـهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ وَأُوْلِي الأَمْـرِ مِنكُـمْ فَـإِن تَنَازَعْتُـمْ فِي شَيْءٍ فَـرُدُّوهُ إِلَى اللّـهِ وَالرَّسُـولِ إِن كُنتُـمْ تُؤْمِنُـونَ بِاللّـهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ ذَلِـكَ خَـيْرٌ وَأَحْسَـنُ تَأْوِيـلاً} [1]

فالله أمر بالطاعة مطلقة له سبحانه، ولرسوله، صلى الله عليه وسلم، ومقيدة لأولياء الأمور، وهم العلماء، أو العلماء والأمراء، وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به، فإنه لولا التقليد لم تكن هناك طاعة تختص بهم.[2]

يقول الزمخشري: المراد بأولي الأمر منكم أمراء الحق؛ لأن أمراء الجور، الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إيثار العدل، واختيار الحق، والأمر بهما، والنهي عن أضدادهما، كالخلفاء الراشدين، ومن تبعهم بإحسان، وكان الخلفاء يقول خيرهم: أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم.[3]

فيروى عن بعض أهل المدينة، قال: خطبنا أبو بكر، فقال: يا أيها الناس، إني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن ضعفت فقوموني، وإن أحسنت فأعينوني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، الضعيف فيكم القوي عندي حتى أزيح عليه حقه، إن شاء الله، والقوي فيكم الضعيف عندي، حتى آخذ منه الحق، إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالفقر، ولا ظهرت - أو قال شاعت - الفاحشة في قوم إلا عمّهم البلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.[4]

---

1. النساء:59.

2. أضواء البيان، 7 /317.

3. الكشاف 1 /556.

4. مصنف عبد الرزاق: 11 /336.

والطاعة الواجبة تكون في الأحوال جميعها، ولا تخضع للمزاجيات والأهواء، فعن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ، قال: (بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، على السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي المَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ، أو نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كنا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لومة لَائِمٍ)[1]

وطاعة الوالدين على ما لها من قداسة ولزوم، فإنها تعطل لما يصران على أمر الابن بالكفر أو المعصية، بدليل قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[2].

مع التنبيه إلى ضرورة مصاحبة الوالدين بالمعروف، حتى حال رفض طاعتهما بشرك أو معصية، عملاً بقوله عز وجل: {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[3]

النهي القرآني المتكرر عن طاعة المنحرفين عن جادة الحق:

المتصفح لآيات القرآن الكريم يجد عدداً منها تعاضد ما تضمنته الآية القرآنية 28 من سورة الكهف المثبت نصها أعلاه، في النهي الصريح عن اتباع الغافلين عن ذكر الله، المتبعين للأهواء، المنحرفين عن جادة الحق، ومن تلك الآيات قوله تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً}[4]

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً}[5]

1. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس.
2. العنكبوت:8.
3. لقمان:15.
4. الإنسان:24.
5. الأحزاب:1.

ويقـول عـز وجـل: {وَلَا تُطِـعِ الْكَافِرِيـنَ وَالْمُنَافِقِـينَ وَدَعْ أَذَاهُـمْ وَتَـوَكَّلْ عَـلَى اللَّـهِ وَكَفَـى بِاللَّـهِ وَكِيـلاً}[1]

ويقول تعالى: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً}[2]

ويقـول جـل مـن قائـل: {فَـلَا تُطِـعِ الْمُكَذِّبِـينَ*وَدُّوا لَـوْ تُدْهِـنُ فَيُدْهِنُـونَ* وَلَا تُطِـعْ كُلَّ حَـلَّافٍ مَّهِـينٍ* هَمَّـازٍ مشَّـاء بِنَمِيـمٍ* مَنَّـاعٍ لِلْخَـيْرِ مُعْتَـدٍ أَثِيـمٍ* عُتُـلٍّ بَعْـدَ ذَلِـكَ زَنِيـمٍ* أَن كَانَ ذَا مَـالٍ وَبَنِـينَ* إِذَا تُتْـلَى عَلَيْـهِ آيَاتُنَـا قَـالَ أَسَـاطِيرُ الْأَوَّلِـينَ* سَنَسِـمُهُ عَـلَى الْخُرْطُـومِ}[3]

فهـذه الطائفـة مـن الآيـات الربانيـة، تضمـن كل منهـا نهيـاً صريحـاً قاطعـاً، عـن طاعـة الغافلـة قلوبهـم عـن ذكـر اللـه، المنحرفـين عـن الحـق، في عقيدتهـم وسـلوكهم ومواقفهـم، مـن الكافريـن والمكذبـين، والمنافقـين والآثمـين في حلفهـم وهمزهـم وعتلهـم.

راجـين أن يتـاح المجـال لاحقـاً للوقـوف عنـد موضـوع نهـي اللـه عـن طاعـة أصحـاب الأهـواء، حسـب الخطـاب الربـاني الكريـم الموجـه لخـير الأنـام، نبيـه محمـد، صـلى اللـه وسـلم عليـه، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أجمعـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، وعـلى مـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. الأحزاب:48.
2. الفرقان:52.
3. القلم:8 - 16.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

نهاه الله عن طاعة أصحاب الأهواء

الحلقة الثانية والأخيرة

يخاطب رب البرية نبيه محمداً، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً}(*)

لغاية تدبر معاني وأبعاد نهي الله عز وجل لنبيه الأسوة، صلى الله عليه سلم، عن طاعة من أغفل قلبه عن ذكر الله، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، الوارد في مضامين هذه الآية الكريمة، وقفت الحلقة السابقة عند لزوم الطاعة مطلقةً لله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، ولزومها مقيدة لأولي الأمر، مع بيان أن الطاعة الواجبة تكون في الأحوال جميعها، ولا تخضع للمزاجيات والأهواء، وتم الاستشهاد بآيات قرآنية تعاضد ما تضمنته الآية القرآنية 28 من سورة الكهف المثبت نصها أعلاه، في النهي الصريح عن اتباع الغافلين عن ذكر الله، المتبعين للأهواء، المنحرفين عن جادة الحق.

النهي عن اتباع غافل القلب:

ينهى الله رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، عن اتّباع غافلي القلوب، فيقول تعالى: {وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا...} يذكر الرازي في التفسير الكبير: أن هذا يدل على أن شر أحوال الإنسان أن يكون قلبه خالياً عن ذكر الحق، ويكون مملوءاً من الهوى الداعي إلى الاشتغال بالخلق، فالقلب إذا أشرق فيه ذكر الله، فقد حصل فيه النور والضوء والإشراق، وإذا توجه القلب إلى الخلق، فقد حصل فيه الظلم والظلمة،

* الكهف: 28.

بل الظلمات، فلهذا السبب إذا أعرض القلب عن الحق، وأقبل على الخلق، فهو الظلمة الخالصة التامة، فالإعراض عن الحق هو المراد بقوله: {أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا} والإقبال على الخلق، هو المراد بقوله: {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}.[1]

ويقابل النهي عن اتباع الغافلة قلوبهم عن ذكر الله، الأمر بذكره سبحانه ليقابل بجزاء رباني من جنسه، مصداقاً لقوله عز وجل: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}[2]، وكما في الحديث القدسي، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تَعَالَى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وأنا معه إذا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ منهم، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيّ بشبر، تَقَرَّبْتُ إليه ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إلي ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إليه بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)[3]

النهي عن اتباع الهوى:

ينهى الله رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، عن طاعة من اتَّبَعَ هَوَاهُ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً، يقول الشنقيطي صاحب أضواء البيان: إن معنى اتباعه هواه، أنه يتبع ما تميل إليه نفسه الأمارة بالسوء وتهواه من الشر، كالكفر، والمعاصي. وقوله: {وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} قيل: هو من التفريط، الذي هو التقصير، وتقديم العجز بترك الإيمان، وعلى هذا فمعنى: {وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} أي كانت أعماله سفهاً وضياعاً وتفريطاً، وقيل: من الإفراط الذي هو مجاوزة الحد، كقول الكفار المحتقرين لفقراء المؤمنين، نحن أشراف مضر وساداتها، إن اتبعناك اتبعك جميع الناس، وهذا من التكبر والإفراط في القول، وقيل: {فرطاً} أي قدماً في الشر، من قولهم: فرط منه أمر، أي سبق، وأظهر الأقوال في معنى الآية الكريمة بحسب اللغة العربية التي نزل بها القرآن، أن معنى قوله: {فرطاً}؛ أي متقدماً للحق والصواب، نابذاً له وراء ظهره، من قولهم: فرس فرط؛ أي متقدم للخيل.[4]

---

1. التفسير الكبير، 21 /100.
2. البقرة:152.
3. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {ويحذركم الله نفسه}(آل عمران).
4. أضواء البيان، 3/ 264 - 266.

درس من النواهي الربانية سالفة الذكر:

المتدبر في النواهي الربانية، التي تضمنتها الآية الكريمة 23 من سورة الكهف، يلحظ أنها تسهم في بناء المنهج الرباني الذي ينبغي على المؤمنين بالقرآن الكريم أن يتبعوه في أحوالهم كلها، وأمورهم جميعها، في سلمهم وحربهم، حال ضعفهم وقوتهم، وعند رضاهم وغضبهم، فالحكم يجب أن يكون لله وحده، وهو الآمر سبحانه بذلك، حيث يقول عز وجل: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}[1] ولما يحدث تنازع أو خلاف بين أفراد أو فئات من الأمة الإسلامية، ينبغي رد الفصل فيه إلى شرع الله، عملاً بقوله جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}[2]

فقضايا الأمة ومن أبرزها قضية احتلال فلسطين، ومسرى النبي، محمد، صلى الله عليه وسلم، ينبغي أن يحدد المسلمون أمراء وعلماء وفئات موقفهم منها في ضوء شرع الله ودينه، حتى تستبعد مشاريع تصفيتها على مرأى منهم، أو بالتواطؤ من بعضهم، فالأمر يتعلق بأحكام شرعية واضحة جَليّة، يلزم العمل بمقتضاها والفتوى بموجبها، فهل من معتبر؟!

هدانا الله لحسن ذكره وشكره سبحانه، لنكون من الذاكرين لا من الغافلين، المنهي عن اتباعهم كما في الخطاب الرباني الكريم أعلاه الموجه لخير الأنام، نبيه محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أجمعين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. النساء:65.
2. النساء:59.

أمره الله أن يعرض عن الجاهلين

يخاطب الله جل في علاه، رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، فيقول سبحانه:{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}(*)

مواقف أهل الباطل الكاذبة ضد الإسلام ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وُجِدَت منذ بدء المعركة بينهم وبين الحق المبين، والصراط المستقيم، وما زالت مستمرة هنا وهناك، وبهذا الشكل وذاك، وبهذه الوتيرة وتلك، ويبقى نور الحق ساطعاً، لن يبهت بفرية ولا بكيد، وصدق رب العزة، حيث قررها قاعدة أبدية في الآية المثبت نصها أعلاه من سورة الأنفال.

وفي عجالة توضيحية، يحسن التذكير بعينة مما ينبغي الإعراض عنه، من افتراءات الجاهلين، قديمها وحديثها ضد الإسلام، لتكون مؤشراً للمبصرين والسامعين والمميزين، لبناء المواقف الواعية المناهضة للأباطيل ومروجيها، ومثيري الشبهات الهادفة إلى زعزعة الإيمان بالمبادئ والحقوق والقيم، وقد تم اختيار ثلاث قضايا لهذه الغاية التذكيرية، تشمل الإعراض عمن زعموا أنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، ومن جعلوا القرآن عضين، ومنكري موضع المسرى.

الإعراض عمن زعموا أنمَّا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ:

أباطيل الكاذبين تجاه الإسلام لم تقف عند حد، فكان من أبرزها زعمهم أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، تعلم القرآن من بشر، فرد الله عليهم داحضاً زعمهم بجملة مفحمة، فالذي يزعمون أنه المُلْهِم للنبي، صلى الله عليه وسلم، أعجمي،

* الأنفال: 30.

والقرآن الذي جاء به عربي مبين، فقال عز وجل: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}[1]

فالتهمة رغم أنها تتعلق بصلب الدين ومصدره، إلا أن الرد عليها لم يكن سوى معلومة دامغة، دحضت تلك الأكذوبة، بأقل الألفاظ، وقُضِي الأمر.

الإعراض عمن جعلوا القرآن عضين:

الله جل في علاه أمر نبيه، صلى الله عليه وسلم، بالإعراض ليس عن أصحاب المزاعم الباطلة من الجاهلين فحسب، بل عن أصحاب الأفعال الآثمة أيضاً، فأمر الله بالإعراض عن المشركين في أعقاب التطرق لذكر الذين جعلوا القرآن عضين؛ أي أجزاء، وقالوا فيه أقوالاً مختلفة، وواحد عضين عضة، وقيل: هو من العضة، وهو السحر، والعاضة الساحر، والمعنى على هذا أنه سحر.[2]

فخاطب الله نبيه، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ* كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ* الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ* فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ* فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ* إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ}[3]

الإعراض عن منكري موضع المسرى:

سفاهة إنكار احتضان بيت المقدس للمسجد الأقصى المبارك، يدحضها النص الشرعي، والإثبات التاريخي والواقعي، ففي الحديث الصحيح عن الْبَرَاءِ أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم: (كان أَوَّلَ ما قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ على أَجْدَادِهِ، أو قال: أَخْوَالِهِ من الْأَنْصَارِ، وَأَنَّهُ صلى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أو سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا...}[4]

---

1. النحل: 103.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 149.
3. الحجر:89 - 95.
4. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان.

فالقبلة الأولى حسب النص الحرفي لهذا الحديث، الذي يرويه البخاري في صحيحه، كانت بيت المقدس، وموضع بيت المقدس معروف لدى العدو والصديق، فهو في قلب فلسطين، وفيه درة التاج المسجد الأقصى المبارك، الذي أُسري إليه بالنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ومنذ ذاك الوقت وحتى يومنا، وأصحاب الرأي من علماء الأمة والسيرة والتاريخ، مجمعون على أن الإسراء الذي بدأ من المسجد الحرام، انتهى إلى المسجد الأقصى المبارك في بيت المقدس، وما أراجيف التشكيك بهذه الحقيقة سوى محاولات يائسة لتزييف التاريخ، لصالح صرف الأنظار عن المسجد الأقصى المبارك وما يعانيه، وتفتير حرارة القلوب عن التعلق بالمسجد الأقصى المبارك، لصالح الطامعين بمحوه عن الوجود، وإحلال تطلعات صهيونية معادية مكانه، وهو جزء من عقيدة الإسلام.

ومثل هذا الإنكار فاضح الزيف، يناسبه الإعراض والتجاهل لعوره البين، وزيفه المنكر، فهو يتساوق مع الحملة المعادية الشعواء، التي يشنها الاحتلال الصهيوني على أرض الإسراء والمعراج، والتي تستخدم فيها شتى صنوف الأسلحة والبطش والمكر، والأساليب المختلفة، والتي منها تضييق الحصار والخناق، وفرض الأمر الواقع على الأرض، بما يتماشى مع الرواية الصهيونية، وتغيير أسماء الشوارع والأزقة والمباني والأحياء القائمة من عربية إلى عبرية، حتى إنهم يسرقون الحجارة الأثرية، وينقلونها إلى مواضع أخرى، بهدف خدمة مشروع العبرنة والتهويد لهذه الأرض العربية المسلمة، ويركزون في أساليبهم على غسل الأدمغة المحلية والعالمية، لينطق من تتطلي عليهم الحيل بلسان عبري متصهين، من حيث يدري أو لا يدري، فيعبر عن وضع غريب عجيب يتناقض مع منهج من يحترمون تاريخهم ووجودهم، ويسعون جهدهم للاعتزاز بمبادئهم وتراثهم، بخلاف المنهزمين الذين يتبرعون بمزاياهم، وخصائص قوتهم، وحقائق تاريخهم، إلى أعدائهم دون أي مقابل سوى السخاء، في الانهزام، في القول والموقف والعمل والوجود.

والحقيقة التي يتجاهلها هؤلاء، ومن رضي بمنهجهم وفكرهم وزيفهم، أن باطلهم لن يطول به المقام، فهم وإياه إلى زوال؛ لأنهم أعداء للحق والحقيقة، والله تعالى يقول: {...كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ}(*)

ولن تنفع الذين يسارعون في موادة أعداء المسجد الأقصى ومحبيه معذرتهم، في الدنيا والآخرة، فالله سيسألهم عن تقصيرهم في الذب عنه والتفريط فيه، والتاريخ سيذكرهم في مصاف المتخاذلين المتساقطين في شباك قلب الحقائق وتزييفها، وصلى الله وسلم على نبينا الأسوة محمد، الذي لبى أمر ربه، فأعرض عن الجاهلين، وصلى الله وسلم على آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

* الرعد: 17.

وقوله: (إذا لم تستحي فَاصْنَعْ ما شِئْتَ)

الحلقة الأولى

عن أبي مَسْعُودٍ، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم:(إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ الناس من كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى؛ إذا لم تستحي فَاصْنَعْ ما شِئْتَ)[1]

تَصدُرُ عن بعض الناس أقوال وأفعال منفلتة من الحشمة والوقار، وهي غير منحصرة في مجال دون سواه من السلوك، فلا تقل وقاحة التفلت من ضوابط الرزانة في مجال كشف العورات، والتلفظ بالفحشاء، عن مهادنة الأعداء على حساب المبادئ والقيم والحقوق المشروعة المسلوبة غصباً، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يبين في حديث أبي مسعود أعلاه، أن التصرف المنفلت من الضوابط الكريمة، يدل على خلل في التحلي بخلق الحياء، وهذه قاعدة متوارثة عما أدركه الناس من كلام النبوة الأولى؛ أي في استحسانه على منهاج واحد.[2]

قال الخطابي: الحكمة في التعبير بلفظ الأمر (فَاصْنَعْ ما شِئْتَ) دون الخبر في الحديث، أن الذي يكف الإنسان عن مواقعة الشر هو الحياء، فإذا تركه صار كالمأمور طبعاً بارتكاب كل شر.[3]

وجاء في عمدة القاري، أن فيه أوجهاً:

أحدها: إذا لم تستح من العتب، ولم تخش العار، فافعل ما تحدثك به نفسك حسناً كان، أو قبيحاً، ولفظه أمر، ومعناه توبيخ.

الثاني: أن يحمل الأمر على بابه، تقول: إذا كنت آمناً في فعلك أن تستحي منه لجريك فيه على الصواب، وليس من الأفعال التي يُستحى منها، فاصنع ما شئت.

الثالث: معناه الوعيد، أي افعل ما شئت تجازى به، كقوله عز وجل: {اعملوا ما شئتم}[4]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت.
2. عمدة القاري:22/ 166.
3. فتح الباري:10/ 523.
4. فصلت: 40.

الرابع: لا يمنعك الحياء من فعل الخير.

الخامس: هو على طريق المبالغة في الذم، أي تركك الحياء أعظم مما تفعله.[1]

وفي أهمية الحياء في الردع عن ارتكاب القبائح، يقول الشاعر:

وَرُبَّ قَبِيْحَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي --- وَبَيْنَ رُكُوْبِهَا إِلَّا الحَيَاءُ

فَكَانَ هُوَ الدَّوَاءَ لَهَا وَلَكِنْ --- إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ فَلَا دَوَاءُ

ويقول آخر:

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي --- وَلَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا تَشَاءُ

فَلَا وَاللَّهِ مَا فِيْ العَيْشِ خَيْرٌ --- وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ

يَعِيْشُ المَرْءُ مَا اسْتَحْيَى بِخَيْرٍ --- وَيَبْقَى العُودُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ

الحياء من الإيمان:

الحياء الزاجر عن اقتراف الرذائل، له مكانته الدينية والأخلاقية، فهو جزء من شُعَب الإيمان، كما جاء في حديث أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال:(الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ)[2]

جاء في عون المعبود، أن الحياء في اللغة: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وفي الشرع: خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق.

وإنما أفرده بالذكر؛ لأنه كالداعي إلى باقي الشُعَب، إذ الحيي يخاف فضيحة الدنيا والآخرة، فيأتمر وينزجر.[3]

وقال القاضي عياض وغيره من الشُراح: إنما جُعل الحياء من الإيمان، وإن كان غريزة؛ لأنه قد يكون تخلقاً واكتساباً كسائر أعمال البر، وقد يكون غريزة، ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب ونية وعلم، فهو من الإيمان بهذا، ولكونه باعثاً على أفعال البر، ومانعاً من المعاصي.[4]

1. عمدة القاري:16 /64.
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان.
3. عون المعبود:12 /282 - 283.
4. صحيح مسلم بشرح النووي:2/ 5.

والتحلي بالحياء من مكارم الأخلاق المحمودة، المنسجمة مع الإيمان، فعن سَالِمِ بن عبد اللَّهِ، عن أبيه: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، مَرَّ على رَجُلٍ من الْأَنْصَارِ، وهو يَعِظُ أَخَاهُ في الْحَيَاءِ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: دَعْهُ، فإن الْحَيَاءَ من الْإِيمَانِ)[1]

الحياء لا يأتي إلا بخير:

فضائل الحياء كثيرة، وخيره واسع، فعن عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إلا بِخَيْرٍ، فقال بُشَيْرُ بن كَعْبٍ: مَكْتُوبٌ في الْحِكْمَةِ؛ إِنَّ من الْحَيَاءِ وَقَارًا، وَإِنَّ من الْحَيَاءِ سَكِينَةً، فقال له عِمْرَانُ: أُحَدِّثُكَ عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَتُحَدِّثُنِي عن صَحِيفَتِكَ؟!)[2]

وكون الحياء خيراً كله، ولا يأتي إلا بخير، قد يُشْكل على بعض الناس، من حيث إن صاحب الحياء قد يستحي أن يواجه بالحق من يجله، فيترك أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق، وغير ذلك مما هو معروف في العادة، وجواب هذا ما أجاب به جماعة من الأئمة، منهم الشيخ أبو عمرو بن الصلاح، رحمه الله، أن هذا المانع الذي ذكرناه ليس بحياء حقيقة، بل هو عجز وخور ومهانة، وإنما تسميته حياء من إطلاق بعض أهل العرف مجازاً؛ لمشابهته الحياء الحقيقي، وإنما حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، ونحو هذا.[3]

فهذه بعض دلائل أهمية خلق الحياء، عسى أن ييسر الله متابعة الوقوف عند مزيد منها لاحقاً، حسب الوارد عن نبينا محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1 صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان.

2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء.

3. صحيح مسلم بشرح النووي:2/ 5 - 6.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

وقوله: (إذا لم تستحي فَاصْنَعْ ما شِئْتَ)

الحلقة الثانية

عـن أَبِي هُرَيْـرَةَ، يقـول: سـمعت رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يقـول: (كُلُّ أُمَّـتِي مُعَـافًى إلا الْمُجَاهِرِيـنَ، وَإِنَّ مـن الْمُجَاهَـرَةِ أَنْ يَعْمَـلَ الرَّجُـلُ بِاللَّيْـلِ عَمَـلًا، ثُـمَّ يُصْبِـحَ وقـد سَـتَرَهُ اللـه عليـه، فَيَقُـولَ: يـا فُـلَانُ، عَمِلْـتُ الْبَارِحَـةَ كَـذَا وَكَـذَا، وقـد بَـاتَ يَسْـتُرُهُ رَبُّـهُ، وَيُصْبِـحُ يَكْشِـفُ سِـتْرَ اللَّـهِ عنـه)[*]

تعرضـت الحلقـة السـابقة لبعـض دلائـل أهميـة خلـق الحيـاء، ومـن ذلـك تبكيـت فاقـد الحيـاء مـن خـلال دعوتـه ليصنـع مـا يشـاء، إلى جانـب بيـان أن الحيـاء مـن الإيمـان، وأنـه لا يـأتي إلا بخـير، وفي الحديـث أعـلاه تأكيـد عـلى أن المجاهريـن في المعـاصي مسـتثنون مـن العفـو الـذي يطـال أمـة الإسـلام، ومـن صـور المجاهـرة المذمومـة أن يفـشي المـرء سراً سـتره اللـه عليـه، ملتقيـاً بذلـك مـع المبادريـن لفعـل الفضائـح والفواحـش جهـاراً، دون اسـتحياء ولا وجـل، والقاسـم المشـترك بـين الموقفـين السـلبيين واضـح، فأحدهمـا يصنـع مـا يشـاء دون مبـالاة لفقـدان الحيـاء، أو لخلـل انتابـه في هـذا الجانـب، والآخـر يجاهـر بالمعصيـة كاشـفاً مـا سـتره اللـه عليـه، وأصحـاب الموقفـين مذمومـون، ينبغـي الحـذر مـن اقتفـاء آثارهـم، والعمـل عـلى منوالهـم.

استحضار رقابة الله تعالى:

ذم المجاهـرة بالمعـاصي، والتحذيـر مـن السـلوك المنفلـت مـن الحيـاء، يعاضدهمـا عـلى صعيـد آخـر اسـتحضار رقابـة اللـه في الشـأن كلـه، فهـو سـبحانه لا تخفـى عليـه خافيـة، ويعلـم السـر وأخفـى، وهـذا الاسـتحضار يعنيـه معـنى الإحسـان في الإسـلام، حسـب مـا جـاء

* صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه.

في حديث أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ،وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ...)[*]

فمن يستحضر خشية الله ورقابته يفترض فيه أن يبذل الجهد والوسع لتجنب اقتراف المعاصي، ما ظهر منها وما بطن، وبالتأكيد أن من تحصيل الحاصل ابتعاد مستحضر رقابة الله عن المجاهرة بالأخطاء، وأن يمنعه الحياء من ارتكاب ما يعاب به، وانطلاقاً من مفهوم المخالفة، فإن من يستحي من الله يتقيد بضوابط الشرع، التي تحجبه عن ارتكاب ما يجلب له اللوم والعار والذم.

وعلى سبيل المثال لا الحصر؛ فإن الذي يستحضر رقابة الله، يجد رادعاً يمنعه من أن يقف معاضداً لمغتصب أرض المسلمين ومقدساتها، ومنتهك حرماتها، بغض النظر عن حجم معاضدي الظلم وبطش ممارسيه، أما حين تغيب رقابة الله عن وجدان المرء ومعايير سلوكه، فإنه يتخبط في المواقف، ويعوج سلوكه، وقد يصبح في حال يرى فيه المعروف منكراً، والعكس بالعكس، وهنا تكون الداهية، بل الطامة، لامتزاج السلوك بمس الشيطان وزيغه وإضلاله، فالمواقف يعوزها حياء يزينها، وخشية من الله تضبطها، حتى تبقى في عقالها واتزانها، فتنساق في خدمة الإسلام والمسلمين، دون تردد ولا مواربة.

اللَّه لَا يَسْتَحِيي من الْحَقِّ:

الحياء المحمود يختلف عن الخجل الذي قد يصرف أحياناً عن المبادرة لطلب العلم، أو قول الحق، فلم يمنع الحياء الرجل ولا المرأة في خير أيام الإسلام وعزه عن التفقه في الدين، فعن أُمِّ سَلَمَةَ، قالت: (جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه

* صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة لقمان، باب قوله: {إن الله عنده علم الساعة} (لقمان: 34).

وسلم، فقالت: يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي من الْحَقِّ، فَهَلْ على الْمَرْأَةِ من غُسْلٍ إذا احْتَلَمَتْ؟ قال النبي، صلى الله عليه وسلم: إذا رَأَتْ الْمَاءَ، فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ - تَعْنِي وَجْهَهَا- وَقَالَتْ: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَ تحتلم الْمَرْأَةُ؟! قال: نعم، تَرِبَتْ يَمِينُكِ، فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا؟!!)[1]

ولم يمنع الحياء المرأة عن الإفصاح عن رغباتها المشروعة بالأساليب والوسائل اللائقة، فعن أَنَس، رضي الله عنه، قال: (جَاءَت امْرَأَةٌ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، تَعْرِضُ عليه نَفْسَهَا، فقالت: هل لك حَاجَةٌ فِيَّ؟ فقالت ابْنَتُهُ: ما أَقَلَّ حَيَاءَهَا، فقال: هِيَ خَيْرٌ مِنْكِ، عَرَضَتْ على رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، نَفْسَهَا)[2]

فالحياء كأي فضيلة يمكن أن يساء فهمه إذا لم ينسجم التحلي به مع ما يوافق المكارم التي حث على التمسك بها الشرع الحنيف، أما حين يتم التقصير بالواجبات تحت عباءة الحياء، فإنه ينقلب من خانة المحمود إلى مسارب المذموم، وذلك حين يمنع الحياء مثلاً من التفقه في الدين، أو من قول الحق، أو عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو حين يكون ذريعة لمجاملة أهل الزيغ والباطل، فينقلب من خلق كريم، إلى رذيلة مذمومة، والله لا يستحي من الحق، ونعم الشجاعة التي تكون في جنب الخير، ونصرة الحق، ودحر الباطل وإنكاره.

فهذه دلائل أخرى على أهمية خلق الحياء، الذي يشترك مع ذم المجاهرة بالمعاصي، ومع استحضار رقابة الله تعالى، في تحقيق غايات سلوكية سامية، والتحلي بمكارم نبيلة، مما يدل على دوره العظيم، ومكانته الرفيعة في منظومة القيم ومكارم الأخلاق.

عسى أن ييسر الله متابعة الوقوف عند مزيد من دلائل أهمية الحياء لاحقاً، حسب الوارد عن نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين

1. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما لا يستحيا من الحق للتفقه في الدين.

وقوله: (إذا لم تستحي فَاصْنَعْ ما شِئْتَ)

الحلقة الثالثة والأخيرة

عـن أبي سَـعِيدٍ الْخُـدْرِيِّ، قـال: (كان النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، أَشَـدَّ حَيَـاءً مـن الْعَـذْرَاءِ في خِدْرِهَـا، فـإذا رَأَى شـيئاً يَكْرَهُـهُ عَرَفْنَـاهُ في وَجْهِـهِ)[*]

تعرضت الحلقة السابقة لبيان أن المجاهرة بالمعاصي تلتقي مع المبادرة لفعل الفضائح والفواحش جهاراً، دون استحياء ولا وجل، بقاسم مشترك واضح، مؤداه أن أصحاب المَوْقِفَين مذمومون، ينبغي الحذر من اقتفاء آثارهم، والعمل على منوالهم.

فالمجاهرة بالمعاصي مذمومة، وكذلك السلوك المنفلت من الحياء، ويلتقي معهما ضعف استحضار رقابة الله في الشأن كله، والحياء المحمود يختلف عن الخجل الذي قد يصرف أحياناً عن المبادرة لطلب العلم، أو قول الحق، فاللَّه لَا يَسْتَحِي من الْحَقِّ، والحياء كأي فضيلة يمكن أن يساء فهمه إذا لم ينسجم التحلي به مع ما يوافق المكارم التي حث على التمسك بها الشرع الحنيف، أما حين يتم التقصير بالواجبات تحت عباءة الحياء، فإنه يتحول من خانة المحمود إلى مسارب المذموم.

أَشَدّ حَيَاءً من الْعَذْرَاءِ في خِدْرِهَا:

خير قدوة في التحلي بالمكارم والأخلاق الحميدة، هو الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأبو سعيد في حديثه الصحيح أعلاه يصف حياءه، صلى الله عليه وسلم، فيذكر أنه كان أَشَدَّ حَيَاءً من الْعَذْرَاءِ في خِدْرِهَا، يبين العيني أن الحياء تغير وانكسار عند خوف ما يعاب أو يذم، و(العذراء) البكر، لأن عذرتها، وهي جلدة البكارة باقية، وقوله: (في

* صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب.

خدرها) بكسر الخاء وسكون الدال، أي في سترها، ويقال: الخِدْر ستر يجعل للبكر في جنب البيت، فإن قلت مبنى أمر العذراء على الستر، فما فائدة قوله: (في خدرها)؟ فيجاب عن ذلك أن: هذا من باب التعميم للمبالغة؛ لأن العذراء في الخلوة يشتد حياؤها أكثر، مما تكون خارجة عن الخدر، لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها، ثم محل الحياء فيه، صلى الله عليه وسلم في غير حدود الله.[1]

وفيه أن للشخص أن يحكم بالدليل، لأنهم عرفوا كراهته للشيء بتغير وجهه.[2]

الاستحياءعن إبداء الضجر:

تعرض النبي، صلى الله عليه وسلم، لموقف من ضيوف تناولوا طعام وليمة لديه، وأبطأوا في الانتشار بعد ذلك، فمنعه الحياء من التعبير لهم عن ضجره من سلوكهم، فعن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (بُنِيَ على النبي، صلى الله عليه وسلم، بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ بِخُبْزٍ وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلْتُ على الطَّعَامِ دَاعِيًا، فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حتى ما أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو، فقلت: يا نَبِيَّ اللَّهِ، ما أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ، قال: ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ، وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ في الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَانْطَلَقَ إلى حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فقال: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فقالت: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ؟ بَارَكَ الله لك، فَتَقَرَّى حُجَرَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ، يقول لَهُنَّ كما يقول لِعَائِشَةَ، وَيَقُلْنَ له كما قالت عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فإذا ثَلَاثَةُ من رَهْطٍ في الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نحو حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فما أَدْرِي آخْبَرْتُهُ، أو أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حتى إذا وَضَعَ رِجْلَهُ في أُسْكُفَّةِ الْبَابِ دَاخِلَةً، وَأُخْرَى خَارِجَةً، أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ)[3]

1. عمدة القاري:16 /113.

2. عمدة القاري: 22 /157.

3. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الأحزاب، باب قوله:{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النبي إلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ} (الأحزاب:53).

قال أَنَسُ بن مَالِكٍ: أنا أَعْلَمُ الناس بِهَذِهِ الْآيَةِ، آيَةِ الْحِجَابِ، لَمَّا أُهْدِيَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ، رضي الله عنها، إلى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، كانت معه في الْبَيْتِ، صَنَعَ طَعَامًا، وَدَعَا الْقَوْمَ، فَقَعَدُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَجَعَلَ النبي، صلى الله عليه وسلم، يَخْرُجُ ثُمَّ يَرْجِعُ، وَهُمْ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النبي إلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طَعَامٍ غير نَاظِرِينَ إِنَاهُ...إلى قَوْلِهِ: من وَرَاءِ حِجَابٍ}[1] فَضُرِبَ الْحِجَابُ وَقَامَ الْقَوْمُ.[2]

الاستحياء من رَجُلٍ تَسْتَحِيي منه الْمَلَائِكَةُ:

ترك صلى الله عليه وسلم، للمسلمين من بعده دروساً عظيمة في الحياء، تجلى ذلك في موقف له حيال صاحبه وصهره، عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فعن عَائِشَةَ، قالت: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، مُضْطَجِعًا في بَيْتِي، كَاشِفًا عن فَخِذَيْهِ أو سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أبو بَكْرٍ، فَأَذِنَ له، وهو على تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ له، وهو كَذَلِكَ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَسَوَّى ثِيَابَهُ، قال مُحَمَّدٌ: ولا أَقُولُ ذلك في يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ، فلما خَرَجَ، قالت عَائِشَةُ: دخل أبو بَكْرٍ فلم تَهْتَشَّ له، ولم تُبَالِهِ، ثُمَّ دخل عُمَرُ، فلم تَهْتَشَّ له، ولم تُبَالِهِ، ثُمَّ دخل عُثْمَانُ، فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَك؟!! فقال: ألا أَسْتَحِي من رَجُلٍ تَسْتَحِي منه الْمَلَائِكَةُ؟!!)[3]

وفي رواية فسر رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، تسويته ثيابه لما دخل عثمان بقوله: (إِنَّ عُثْمَانَ رَجُلٌ حَيِيٌّ، وَإِنِّي خَشِيتُ إن أَذِنْتُ له على تِلْكَ الْحَالِ أَنْ لَا يَبْلُغَ إِلَيّ في حَاجَتِهِ)[4]

فهذه جوانب من دلائل أهمية خلق الحياء، الذي امتاز بالتحلي به النبي الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه ووالاه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الأحزاب:53

2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الأحزاب، باب قوله: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النبي إلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ} (الأحزاب:53).

3. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

4. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

الفهرس

الفصل الأول/ عبادات الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
	تقديم	4
1.	يبشر بفتح أبواب الرحمة مع قدوم رمضان	7
2.	بُلِغَ ليُعلمَ الخلقَ بأن الله قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه	11
3.	وَجُودُه في رمضان وغيره - الحلقة الأولى	14
4.	وَجُودُه في رمضان وغيره - الحلقة الثانية والأخيرة	17
5.	يربط ثبوت رمضان وشوال بالأهلة، ويبشر الصائم بفرحتين	21
6.	يحث على الاعتدال في الصيام بعد رمضان	25
7.	يهتف بربه أن ينجز له وعده	28
8.	ومناسبة اعتكافه في شوال	31
الفصل الثاني/ معاملات الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
1.	يأمر بالحجر الصحي عند تفشي الأوبئة - الحلقة الأولى	35
2.	يأمر بالحجر الصحي عند تفشي الأوبئة - الحلقة الثانية والأخيرة	38
3.	يتضرع للمرضى بالشفاء	42
4.	يمني مريضاً مُشفياً على الموت بالحياة والبقاء - الحلقة الأولى	45
5.	يمني مريضاً مُشفياً على الموت بالحياة والبقاء - الحلقة الثانية والأخيرة	48
6.	تزوج عائشة، رضي الله عنها، في شوال	51
7.	يعزز التكافل بين الناس في العيد	54
8.	يوازن بين حق الدائن وظروف المدين	58

الفصل الثالث/ تفسير الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة الأولى	63
.2	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة الثانية	67
.3	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة الثالثة	71
.4	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة الرابعة	74
.5	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة الخامسة	78
.6	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة السادسة	82
.7	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة السابعة	86
.8	وصِفات قرآنية لأتباعه - الحلقة الثامنة والأخيرة	90
الفصل الرابع/ سيرة نبوية الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	نهاه الله أن يذهب نفسه عليهم حسرات - الحلقة الأولى	95
.2	نهاه الله أن يذهب نفسه عليهم حسرات - الحلقة الثانية والأخيرة	98
.3	بلغ عن ربه دعاء أخيه نوح عليه السلام : {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} - الحلقة الأولى	102
.4	بلغ عن ربه دعاء أخيه نوح عليه السلام : {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} - الحلقة الثانية	105
.5	بلغ عن ربه دعاء أخيه نوح، عليه السلام : {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} - الحلقة الثالثة والأخيرة	109
.6	ولد يتيماً فآواه الله، ونهاه عن قهر اليتيم	112
.7	ينتصر له الله وجبريل وصالح المؤمنين وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ	115
.8	بشره ربه بهزيمة جمع أعدائه وأنهم سيولون الدبر - الحلقة الأولى	119
.9	بشره ربه بهزيمة جمع أعدائه وأنهم سيولون الدبر - الحلقة الثانية والأخيرة	122

الفصل الخامس/ المسرى **الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم**		
١.	يجذب عيون المسلمين وقلوبهم وعقولهم وأبدانهم إلى مسراه - الحلقة الأولى	127
.2	يجذب عيون المسلمين وقلوبهم وعقولهم وأبدانهم إلى مسراه - الحلقة الثانية والأخيرة	130
الفصل السادس/ أخلاق وقيم **الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم**		
.1	سياسته مع الأحمق المطاع - الحلقة الأولى	135
.2	سياسته مع الأحمق المطاع - الحلقة الثانية	139
.3	سياسته مع الأحمق المطاع - الحلقة الثالثة	142
.4	سياسته مع الأحمق المطاع - الحلقة الرابعة والأخيرة	146
.5	يرسي مبدأ احترام حقوق اللاجئين	150
.6	نهاه الله عن طاعة أصحاب الأهواء - الحلقة الأولى	154
.7	نهاه الله عن طاعة أصحاب الأهواء - الحلقة الثانية والأخيرة	158
.8	أمره الله أن يعرض عن الجاهلين	161
.9	وقوله: «إذا لم تستحي فَاصْنَعْ ما شِئْتَ» - الحلقة الأولى	165
.10	وقوله: «إذا لم تستحي فَاصْنَعْ ما شِئْتَ» - الحلقة الثانية	168
.11	وقوله: «إذا لم تستحي فَاصْنَعْ ما شِئْتَ» - الحلقة الثالثة والأخيرة	171